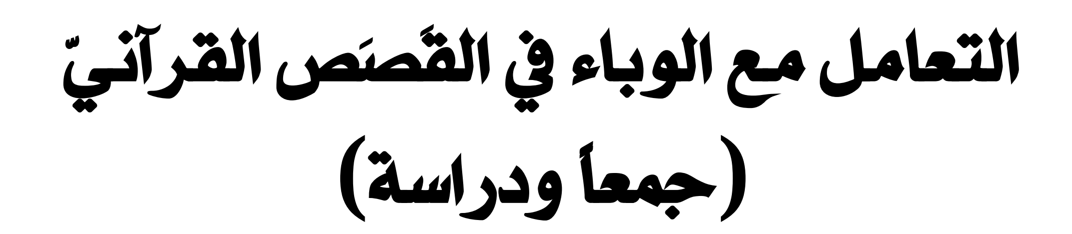


التعامل مع الوباء في القَصَص القرآنيّ
(جمعاً ودراسة)

الدكتورة/ فاطمة بنت محمد الزويهري

الأستاذ المشارك بكلية ينبع الجامعية بالهيئة الملكية بينبع

قسم الدراسات العامة

alzwaihrif@rcyci.edu.sa

الملخص

وفي هذه الدراسة أُسلّط الضوء على كيفية تعاطي القصص القرآني مع الوباء والمرض، وأستخلص بعض الدروس المستفادة في التعامل مع الوباء من خلال استقراء تلك القصص ودراستها، ؛ لمعرفة ما من شأنه رفع مستوى إدراك الأفراد والمجتمعات لطرق التصدي والتعامل مع الأوبئة.

المبحث الأول: مفهوم الوباء والمنهج القرآني في التعامل معه، والثاني: الوباء في القصص القرآني نصوص ودروس، ثم: مسائل متعلقة بالوباء في القصص القرآني، أهم النتائج والتوصيات

- تأثير الموقف الجماهيري على تعامل المجتمع مع الوباء.
- يجب ألا يحكم الناس على من حلّ بهم الوباء سواء أشخاص أو أهل بلد أنه بسبب معاصيهم.
- مكة والمدينة محفوظتان من الطاعون، وليستا محفوظتين من الأمراض العامة والأوبئة.
- النهي عن التشاؤم بالسنين التي وقع فيها الوباء.
- الإعجاز العلمي في السنة.
- يتحتم على الحكومات إعداد العدة العلمية والمادية لمواجهة الأوبئة ووضع الخطط الاستباقية لمكافحتها.
- أهمية رفع الوعي الفردي والمجتمعي في كيفية التعامل مع الأوبئة، وبذل الجهود للالتزام بما توجههم إليه حكوماتهم.
- توصي الدراسة بتوجيه الاهتمام إلى الدراسة الموضوعية للقصص القرآني.
- ضرورة دعم البحوث العلمية، والمراكز البحثية التي تعالج موضوعات الأوبئة.
- رفع الوعي بالبرامج والأنشطة التوعوية التي تنمي سلوك الفرد أمام الأزمات.

المقدمة

الحمد لله الذي ميسّر القرآن للذّكر، مدبّر اللّيل والنهار مقلب القلوب والأبصار ذي النعم والآلاء، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، شرّف هذه الأمة بمبعث نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، فجعله لها سراجاً منيرًا ،ومبشرًا نذيرًا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له عدة للقائه، وأمانا من عذابه، وأشهد أنّ محمدا عبده ورسوله خاتم أنبيائه، المؤيّد بالدلائل الباهرة ، والحجج القاهرة، بعثه الله بين يدي الساعة ، فبلغ الرسالة، وأدى الأمانة، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الطيبين، وأهل بيته الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وسلّم تسليما إلى يوم الدين.أما بعد: أنزل الله سبحانه وتعالى القرآن الكريم مُعجزة على نبيّه محمّد عليه الصّلاة والسّلام، فكان كتابًا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وضمّنه القَصَص والعبر والآيات والأحكام التي تصلح لكلّ زمانٍ ومكان، واجتمع فيه كل ما فيه الخير للإنسان، وجعل تدبر معانيه والتفكر في كنوز مفاهيمه من أعظم العبادات قال تعالى ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ [القمر: ١٧] فالتّدبّر وإعمال العقل البشري والتأمّل في معاني الآيات القرآنيّة، وما اشتملت عليه من عبرٍ وآيات ودروس ولطائف، عبادة يؤجر عليها العبد. ومن أساليب القرآن المعجزة ما ذكره الله لنا في كتابه العظيم من القصص القرآني، الذي جاء سرده بأسلوب بياني حكيم، وتتجلى في ذلك الرحمة الإلهية فالعقل البشري تزيده القصص إدراكا وفهما للمعاني والأحكام، والنفس تميل بفطرتها لهذا الأسلوب، ولاريب فالله خالق البشر وهو أعلم بما يصلحهم سبحانه وتعالى.

وقد كرم الله تعالى الإنسان، وأقرّ في قواعد تشريعه الحفاظ على النفس، ودفع الضرر عنها وإزالته، والتخفيف عن المريض، وحث على التداوي، وأمر بكل ما يقيم صحة الإنسان، ويحفظ بدنه، ويدفع عنه الوباء ورسم في شرعه طريقا كاملاً يحفظ الله به الإنسان من كثير من الأسقام. وعالج القرآن الكريم بالأسلوب القصصي المواضيع التي شكّلت سِمات المجتمع المسلم، ولامست قضاياه الإيمانية والسلوكية المختلفة، واحتوت على الكثير من التوجيهات التي تحفظ للفرد صحته وعقله وعقيدته.

الغرض من كتابة البحث

يشهد العالم اليوم جائحة تاريخية شديدة لوباء أثّر في الشعوب والمجتمعات، وهو فايروس كورونا (كوفيد ١٩) الذي فتك بالكثير وأثر على الجوانب الصحية والاقتصادية والعلاقات والأفراد. وفي هذه الدراسة أُسلّط الضوء على كيفية تعاطي القصص القرآني مع الوباء والمرض، وأستخلص بعض الدروس المستفادة في التعامل مع الوباء من خلال استقراء تلك القصص ودراستها، وتدبّر أحداثها؛ لمعرفة ما من شأنه رفع مستوى إدراك الأفراد والمجتمعات لطرق التصدي والتعامل مع الأوبئة.

مشكلة الدراسة: تحاول هذه الدراسة الإجابة عن السؤال الرئيس الآتي:

كيف ترسم الدروس المستفادة من القصص القرآني منهجا إيمانيا وسلوكيا في التعامل مع الوباء في حياة الأفراد والمجتمعات؟

وينبثق عن هذا السؤال الأسئلة الفرعية الآتية:

أولاً: ما مفهوم الوباء في ضوء اللغة العربية والقرآن الكريم؟

ثانياً: ما هو المنهج القرآني في التعامل مع الوباء في حياة الأفراد والمجتمعات؟

ثالثاً: ماذا نستنتج من القصة القرآنية في تحقيق الأسلوب الأمثل في التعامل مع الوباء من خلال دراسة القصة وتحليل أحداثها، وماذا يتعلق بها من مسائل يمكن دراستها؟

أهداف الدراسة: تهدف هذه الدراسة إلى تحقيق ما يأتي:

١. بيان مفهوم الوباء.

٢. إبراز المنهج القرآني في التعامل مع الوباء.

٣. بيان الدروس والمسائل المستنبطة من القصص القرآني في تحقيق الأسلوب الأمثل في التعامل مع الوباء.

الدراسات السابقة:

لم أعثر –في حدود اطلاعي– على دراسة علمية حول طرق التعامل مع الأمراض والأوبئة في القصة القرآنية، وقد تناول الكتّاب والباحثين القصص القرآني بدراسات موضوعية مختلفة وهي تدور حول جانبين:

الأول: الدراسة الموضوعية لقصة معينة، وتحليل ما فيها من عبر ودروس في ضوء بعض سور القرآن ومن أمثلة هذه الدراسات:

- دور القصة القرآنية في بناء قيمة الإيجابية سورة يوسف أنموذجاً للدكتور محمد خير.
- وكتاب البوصلة القرآنية للدكتور أحمد خيري العمري، حيث تناول قصتي يونس ويوسف عليهما السلام.

الثاني: دراسة موضوعات تتعلق بجوانب مختلفة من الأحكام العقدية والتربوية واللغوية والفقهية، وغيرها في القصص القرآني إجمالا ومن تلك الدراسات:

- المقاصد العقدية في القصص القرآني للدكتور طويل الزايدي.
- وكتاب القيم التربوية في القصص القرآني، لسيد أحمد.

أهمية الدراسة

تبرز أهمية هذه الدراسة من كونها واحدة من الدراسات الحديثة التي تناولت الوباء في القصص القرآني.

منهجية البحث العامة:

١. المنهج الاستقرائي: الذي يقوم على جمع المادة العلمية من مظانها ومصادرها المختلفة.

٢. المنهج التحليلي: الذي يقوم على تحليل المادة العلمية.

منهجية البحث التفصيلية:

- استقرأت القرآن الكريم كاملا لاستخراج القصص القرآني المتعلق بموضوع الوباء والمرض.
- ضبطت الآيات القرآنية، وعزوتها للسور في المتن.
- رتبت الآيات في القصص القرآني –موضع الدراسة– حسب ترتيب المصحف.
- أذكر بعد آيات القصة الراجح والمختصر من أقوال المفسرين فيها دون تفصيل منعا للإطالة.
- ثم أذكر ما استخلصته من القصة فما يتعلق بموضوع الوباء وسبل التعامل معه من خلالها.
- خرَّجت في الحاشية الأحاديث، وإذا كان الحديث في الصحيحين أكتفي بالعزو إليهما.
- أبيِّن ما قد يخفى من غريب الألفاظ والأماكن معتمدة في ذلك على كتب اللغة والغريب والبلدان.
- عزوت الأقوال إلى مصادرها الأصلية.

محتويات البحث:

المقدمة

التمهيد: علاقة الوباء بالقصص القرآني

المبحث الأول: مفهوم الوباء والمنهج القرآني في التعامل معه

أولا: مفهوم الوباء وإطلاقاته في القرآن

ثانيا: المنهج القرآني في التعامل مع الوباء

المبحث الثاني: الوباء في القصص القرآني نصوص ودروس

أولا: قصة (الذين خرجوا من بني إسرائيل من ديارهم حذر الموت)

ثانيا: قصة (الذين بدّلوا القول من بني إسرائيل فكان العذاب وباءً مهلكا)

ثالثا: قصة (أيوب عليه السلام مع المرض)

رابعا: قصة (عذاب أصحاب الفيل).

المبحث الثالث: مسائل متعلقة بالوباء في القصص القرآني ودراستها

أولا: هل يدخل الوباء مكة؟

ثانيا: الدعاء برفع الوباء يتضمن الدعاء برفع الموت، فكيف يكون ذلك والموت حتمي؟

ثالثا: التشاؤم بالسنين التي يقع فيها المرض

الخاتمة: وفيها أبرز النتائج والتوصيات

فهرس الكتب والمراجع، **ثم فهرس** الموضوعات

هذا وأسأل الله التوفيق والسداد، وأن يجعل عملي خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع به كاتبه وقارئه، وأن يرفع البلاء عن سائر البلاد والعباد، ويصرف عنهم الوباء وسيئ الأسقام، إنه على ذلك قدير وبالإجابة جدير، والصلاة والسلام على سيد الخلق أجمعين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه الطيبين.

تمهيد

علاقة الوباء بالقصص القرآني

القرآن الكريم كتاب الله تعالى الذي يتضمن كلماته، أنزله إلى خاتم رسله وأنبيائه محمد صلى الله عليه وسلم والذي أحكمت آياته، وأكرم الله به الأمة الإسلامية ليكون دستورا لها، وهو عقيدة المسلم، الذي يحدد تعامله مع الحياة والكون، فيجب على الإنسان تدارسه والأخذ منه بمقدار وافر؛ فهو الكتاب المنزل من رب العالمين.

وقد جاءت الشريعة بحفظ النفس وحماية حقها في الحياة، ومن هنا كان الخطاب القرآني موجَّهاً إلى النفس الإنسانية من منطلق عظيم وهو أن القرآن الكريم شفاء لما في الصدور، فجعلت لها تدابير كثيرة في حفظها، وسلامتها وفي منع زوالها، قال تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣]

وتعد الأوبئة والأمراض من أشد الأزمات التي تمرّ على البشرية، فتصيب الأنفس وتفتِك بالأجساد، وتؤثر على المجتمعات، فيبحث الإنسان عن طرق التعامل معها للحد من تأثيرها، وهي أمر يصيب به الله بقدره وحكمته من يشاء ومتى شاء.

وانطلاقاً من وحدة المصدر بين القرآن الكريم وبين ما يصيب النفس الإنسانية من وباء ومرض، فالله سبحانه وتعالى هو خالق الأنفس وهو ذاته منزل القرآن، كان الخطاب القرآني هو الأنجع في طرق التعامل الأقوم مع الوباء، فالقرآن فيه الشفاء التام من جميع الأدواء القلبية والبدنية.

فهو الملجأ إذا اضطربت القلوب، وهو الملاذ إذا تكالبت على العبد الآفات والكروب فيهتدي العبد بهداه، ويستنير بنوره، وينهل منه السبل التي تنعكس على سلوكه في تعامله مع الأوبئة ثباتاً ويقينا وصبراً عند الأزمات.

ولما للجانب القصصي في القرآن الكريم من أهمية بالغة، فقد قصَّ الله علينا في كتابه أحسن القصص ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ۚ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠]

وهذا يتناول كل ما قصَّه الله علينا في كتابه العظيم، وكان لإيراد القصص القرآنية حِكَماً ودروساً لتربية الأفراد والمجتمعات وما تتخلله من عبر وعظات، وما تضمنته من قضايا القرآن المهمة كالتوحيد والإيمان وأركانه ومعايير الحق والخير، والمعايير التي تقاس بها الأقوام امتثالا



وعصيانا، وبيان لسنن الله في خلقه من الأمم والجماعات والأفراد، وهي سنن جرت على الماضين، وتجري على اللاحقين ليعتبر بها المؤمنون، ونحو ذلك مما احتوت عليه قصص القرآن في سرد متَّسِق معجز.

وبدراسة تلك القصص وتدبرها يقف الإنسان على نبع ملهم، ومصدر مشعّ يرسم منهجا ربانيا عظيما في التعامل مع أحداث الحياة وتقلباتها، فنتجاوز قضية العظة والعبرة إلى أمر أجلّ في التطبيق والاتباع وهو ماذا أفعل؟ وكيف أتعامل، وبماذا أشعر؟ كل ذلك في ضوء تدبّر قرآنيّ حصيف للقصص القرآني العظيم.

المبحث الأول: مفهوم الوباء والمنهج القرآني في التعامل معه

أولا: مفهوم الوباء وإطلاقاته في القرآن

مجمل الأقوال فيما ورد في معنى الوباء في كتب معاجم اللغة وكتب التعاريف والغريب ونحوها ما يلي [١]:

١- هو كل مرض عام

قاله ابن الأثير وغيره، وفي اللغة أوبأت الأرض فهي مُوبئة إذا كثر مرضها. واستوبأت البلد والماء.

٢- الوباء الذي يكون بسبب تغير الهواء.

ومن العلماء من عرّف الوباء بأنه فساد يعرض لجوهر الهواء؛ فتفسد بسببه الأجساد، وتتأثر به الأمزجة والأبدان وقد يكون لأسباب أرضية كالماء الآسن والجِيَف الكثيرة، أو أسباب سماوية كاجتماع كواكب ذات أشعة، والسفلية كالملاحم وانفتاح القبور وصعود الأبخرة الفاسدة، وتغير فصول الزمان، وذكروا له علامات، منها الحمى والجدري والنزلات والحكة والأورام وغير ذلك.

٣- وقيل: الموت الذريع.

٤- وقيل الوباء هو الطاعون

أطلق بعضهم على الوباء بأنه الطاعون وهو "مرض وَرَمِيٌّ وبائي سببه مكروب يصيب الفئران، وتنقله البراغيث إلى فئران أخرى وإلى الإنسان"[٢] أي أنه مخصوص بأعراض معينة، فليس كل وباء طاعونًا، وليس كل وباء معدٍ يعد طاعوناً إلا بالقياس أو المجاز.

وذكر ابن القيم أن بين الوباء والطاعون عموم وخصوص، فكل طاعون وباء، وليس كل وباء طاعون، وكذلك الأمراض العامة أعم من الطاعون، فإنه واحد منها، أي: الطاعون أحد أنواع الأوبئة.

والدليل على أن الطاعون يغاير الوباء، أن الطاعون لا يدخل المدينة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا يدخل المدينة المسيح ولا الطاعون"[٣] وفي حديث عائشة رضي الله عنها قالت: " قدمنا المدينة وهي أَوْبأ أرض الله قالت: فكان بطحان [٤] يجري نجلًا تعني ماءً آجنًا"[٥]. وحديث بلال بن رباح قال: "أخرجونا إلى أرض الوباء"، وحديث أبي الأسود: "قدمتُ المدينة في خلافة عمر وهم يموتون موتًا ذريعًا"

قال ابن حجر: فكل ذلك يدل على أن الوباء كان موجودًا بالمدينة، وقد صرح الحديث الأول بأن الطاعون لا يدخلها، فدلّ على أن الوباء غير الطاعون، وأن من أطلق على كل وباء طاعونًا فهو بطريق المجاز.

ومما يؤيد أن الوباء أعم من الطاعون أن وباء المدينة ما كان إلا بالحمى كما في حديث عائشة رضي الله عنها، قالت: "لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة، وعك أبو بكر، وبلال.. فدعا النبي صلى الله عليه وسلم أن ينقل حماها إلى الجحفة" ﴿٦﴾

<u>خلاصة القول في معنى الوباء :</u>

يمكن الجمع بين المعنى الأول والثاني فالوباء هو عموم الأمراض، وهو متعلق بمنطقة جغرافية أي أنه المرض إذا كثر في البلد، وهو أيضا ما يحصل من تغيرات في المناخ والطقس تتأثر بها الأبدان وهو ما يتوافق مع كثير من الدراسات العلمية المعاصرة حول تقلبات الطقس وتفاعل جسم الإنسان معها، وقد ذكرت إحدى الدراسات الألمانية أنه: في حالة وجود تغيير من جبهة باردة إلى جبهة دافئة، فإن درجة الحرارة وضغط الجو، سوف يتغيران ويمكن أن يؤديا إلى مشاكل صحية "[٧] فالوباء هو المرض العام.

والجدير بالذكر أن الوباء بهذا اللفظ لم يرد في القرآن الكريم وإنما ورد بمعنى السُّقم في موضعين، وبمعنى المرض في تسعة عشر موضعا وهو ما يؤيد القول في معنى الوباء أنه المرض العام، حيث اختصت ستة مواضع منها بأمراض الأجساد، والباقي تعلقت بأمراض القلوب فهي تمرض كما تمرض الأبدان.

وقد ورَد في القرآن في مواطن العذاب للمكذّبين والعاصين تارة، ومواطن الابتلاء للأنبياء والمؤمنين تارة كما سيأتي في المبحث الثاني.

ثانيا: المنهج القرآني في التعامل مع الوباء:

إن موضوع هذا البحث هو القَصَص القرآني، واستنباط ما جاء فيها من التعامل من الأوبئة والأمراض لكن لعلّ من المهم أن ألقي نظرة موجزة على المنهج القرآني عامة في التعامل مع الوباء، والحفاظ على صحة الإنسان من منطلق عظيم وهو أن القرآن شفاء لما في الصدور قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧] "فالقرآن هو الشفاء التام من جميع الأدواء القلبية والبدنية، وأدواء الدنيا والآخرة، إذا أحسن العليل التداوي به، ووضعه على دائه بصدق وإيمان وقبول تام، واعتقاد جازم، وما كل أحد يؤهّل ولا يوفق للاستشفاء به "(٨) لقد رسم القرآن الكريم المنهج الأمثل للحفاظ على النفس البشرية روحا وجسدا، وتعامل معها باعتبارها ضرورة من الضرورات الخمس التي جاءت الشريعة بالحفاظ عليها.فالمتأمل في كتاب الله يجد جملة من الأحكام والتوجيهات تبّين ذلك المنهج الربانيّ.

وتتمثل في الجوانب التالية:

١- إقرار طرق الوقاية من الوباء وبذل الأسباب في مدافعة الأمراض.

لقد تضمن القرآن أهم قوانين الطب الوقائي، والذي يُستفاد من جملة التوجيهات والأحكام والأوامر التي من شأنها الحفاظ على الصحة وتجنب المرض، ومن ذلك:

■ الأمر بالطهارة والنظافة، فقد تنقل الثياب الأمراض والعدوى فقال سبحانه: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [المدثر: ٤] بل جعل طهارة البدن عبادة لا تتم الصلاة بدونها، فقد أوجب الله الاغتسال من الجنابة، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا ۚ﴾[المائدة: ٦]

وأوجب الغسل على المرأة إذا طهرت من حيضها ونفاسها، قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

■ وقد حث القرآن على الطهارة لأنها سبب في صرف الوباء عن الخلق وأكّد على ذلك، وجعلها موجبة لمحبة الله قال تعالى: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ۚ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨]. وقال سبحانه ﴿وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥]

■ شرع لنا تناول الطيبات من الأطعمة والأشربة، ونهانا عن تناول الخبيث منها، ونهانا عن الإسراف في تناول الطعام والشراب، وحرّم علينا الأكل من الميتة والدم ولحم الخنزير، كما نهانا عن الخمر والمخدرات وشرع لنا الزواج، ونهى عن الزنا واللواط. قال تعالى: ﴿ويحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]. فحرم أكل لحوم الحيوانات الميتة والدم وأكل لحم الخنزير، والسباع والطيور الجارحة، وأكل الحيوانات والطيور التي تتغذى على القاذورات، واقتناء الكلاب والتعامل معها إلا لضرورة، وقد أثبت العلم "أن هذه الحيوانات ولحومها تشكل بُؤراً لتجمعات هائلة وخطيرة من الكائنات الدقيقة الفاتكة بالإنسان." (٩) ولا شك أن لحوم الميتة والدماء المسفوحة من الخبائث التي لها تأثير سيئ على الصحة، قال تعالى ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ﴾ [المائدة: ٣] وقد تحقق ضررها علمياً، وظهر خطرها على حياة الإنسان، وقد تقرر في العلم الحديث "حيث أن احتباس دم الميتة في عروقها المتشعبة ضمن أنسجتها ييسر للجراثيم التي تعيش متطفلة على الحيوان في الفتحات الطبيعية والأمعاء والجلد، أن تنتشر بسرعة وسط اللحم من خلال السائل الزلالي في الأوعية والعروق، وتتكاثر بسرعة وينتج عنها مركبات كريهة الرائحة سامة التأثير، كما قد يموت الحيوان بسبب مرض معين، فتنتقل جرثومة المرض إلى الإنسان فتؤذيه وقد تهلكه، كما في مرض السل والجمرة الخبيثة ونحوها.وحرم الله سبحانه أيضاً الميتة بسبب الاختناق أو بسبب الرضّ سواء كان ذلك الرضّ بالوقذ (١٠) أو التردّي من مكان عال، أو بواسطة النّطح من حيوان آخر وكذلك ما أكل السبع لأن تلك الأنواع إضافة إلى ما ينتج عن احتباس دمائها في أنسجتها من الأخطار السابقة، فإن الاختناق يزيد من سرعة تعفن الجثة، والرضّ يسبب انتشار للدم تحت الجلد وداخل اللحم والأنسجة في الأماكن المرضوضة، وقد تكون به جروح تسهل عبور جراثيم الهواء إلى داخل الأنسجة فتعجل بتحللها وفسادها، وما تحمله السباع من جراثيم وكائنات دقيقة فتاكة بين أنيابها، تؤدي نفس النتيجة بأنسجة الحيوان ولحمه مما تجعله يشكل خطراً داهما على حياة الإنسان حينما يأكل لحمه. (١١)

٢- شرع التداوي وبذل الأسباب والحث على العلاج، بل وأشار إلى بعض الأطعمة التي يُتداوى بها مثل عسل النحل الذي احتوى على الكثير من الفوائد الطبية قال سبحانه: ﴿يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ﴾ [النحل: ٦٩]، وكذلك ما أودعه الله تعالى

في الماء من منافع، فضلا عن أنه عنصر مهم للحياة فهو علاج للكثير من الأمراض، وحين قدر سبحانه وتعالى رفع المرض عن أيوب عليه السلام قال: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ [ص: ٤٢]

٣-لقد أثبت القرآن الكريم بعض مسببات الأمراض مثل:

- الإصابة بمرض نتيجة نقص الغذاء، أو البقاء في بيئة غير صالحة لحياة الإنسان وصحته، كما جاء في الآية التي تشير الى يونس عليه السلام ﴿فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، ثم قال: ﴿فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ. وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾ [الصافات: ١٤٥-١٤٦] وفي هذه الآية إشارة الى فوائد الأغذية المتنوعة، والتي تصلح للعلاج أيضا، مما يشير إلى أهمية البحث عن فوائد الطعام الغذائية والعلاجية، والشفاء كان لسيدنا يونس عليه السلام بوضعه في بيئة مناسبة، تحت الرعاية بغذاء معين وهو اليقطين؛ لأنه "غني بالعديد من العناصر المفيدة، وقد أثبتت الأبحاث أن عصارة نبات الدُّبَّاء (اليقطين) وعصارة ثمرته تعيد صبغات الجلد، وتنمي أنسجته وتقوي الجسم، وقد اختاره الله سبحانه وتعالى لنبيه يونس عليه السلام، وهو هزيل الجسم بعد إخراجه من بطن الحوت"(١٢)

- ومن تلك المسببات إصابة الإنسان بالأمراض التي تنقلها الحشرات، أو بسبب الكائنات الدقيقة كالفيروسات والبكتريا، وقد وجّه النبي صلى الله عليه وسلم بتغطية الإناء وإكفاء السقاء، تحرزا ووقاية من الهوام والبكتريا وغيرها (١٣)، ليكون النبي صلى الله عليه وسلم بهذا الأمر النبوي هو الواضع الأول لقواعد حفظ الصحة بالاحتراز من عدوى الأوبئة والأمراض المعدية، وقد سبق بهذا التوجيه دراسات الطب الحديث المتخصصة في وضع قوانين الوقاية. (١٤)

٤-وتتجلى الرحمة الإلهية والعدل الرباني في القرآن الكريم أن الله عز وجل منح المريض الرخصة من بعض العبادات، فأباح التيمم للمريض حمية له قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [النساء: ٤٣] وقال في حفظ الصحة للصائم: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: ١٨٤]، فأباح للمسافر الفطر في رمضان؛ حفظاً لصحته لئلا يجتمع على قوته الصوم ومشقة السفر فتضعف القوة والصحة. وقال في حلق الرأس للمُحرم: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [البقرة: ١٩٦]، حيث أباح للمريض ومَن به أذى مِن رأسه وهو محرِم، أن يحلق رأسه ويستفرغ المواد الفاسدة والأبخرة الرديئة التي تولد عليه القمل، كما حصل لكعب بن عجرة رضي الله عنه (١٥)، أو تولّد عليه المرض.

٥-ومن أعظم ما يوجهنا إليه المنهج القرآني في رفع الوباء ودفع البلاء هو الدعاء والتضرع لله، ولنا في أيوب عليه السلام أسوة قال عنه ربه: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣] قال ابن حجر رحمه الله في الفتح: ورد البلاء بالدعاء كردّ السهم بالتّرس، وليس من شرط الإيمان بالقدر أن لا يُتَتَرّس من رمي السهم (١٦). ومن تتبع ما جاء به القرآن الكريم مما يقيم صحة الإنسان، ويحفظ بدنه، ويدفع عنه الوباء فإنه يجد منهاجاً كاملاً يحفظ الله به الإنسان من كثير من الأسقام، ويبقى ﴿الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٤]

المبحث الثاني: الوباء في القصص القرآني نصوص ودروس

أولا: قصة (الذين خرجوا من بني إسرائيل من ديارهم خشية الموت)

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٣] حين يقع الوباء والمرض المعدي في أرض تضطرب قلوب أهلها، ويهيمن عليهم القلق خوفا من الفناء، وسعيا في الحفاظ على البقاء، وتتخبط العقول فلا يبقى فيهم حكيم ولا رشيد، هكذا تعاملت جماعة من بني إسرائيل مع ما وقع في قريتهم من الوباء ذكر ابن كثير وغيره في سبب نزول هذه الآية أن جماعة من بني إسرائيل كانوا أربعة آلاف أو يزيدون خرجوا فرارًا من وباء شديد -وحدده بعض المفسرين بالطاعون- حتى إذا كانوا على رأس ميل بوادٍ أفيح(١٧)، فخرج أغنيائهم وأشرافهم وأقام فقراؤهم وسفلتهم، فاستحر الموت على المقيمين، ولم يصب الآخرين شيء قالوا: نأتي أرضًا ليس بها موت، حتى إذا كانوا بموضع كذا وكذا قال الله لهم: ﴿مُوتُوا﴾ فماتوا وصاروا عظاماً تبرق، فمرّ عليهم نبي من الأنبياء يقال له: حزقيل فدعا ربه أن يحييهم فقال: يا رب لو شئت أحييت هؤلاء فعمروا بلادك وعبدوك، فأحياهم، فذلك قوله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ.﴾(١٨)وعلى الرغم من أن

البعض من المفسرين ذكروا أن خروجهم كان تهربا من الجهاد، إلاّ أن الذي عليه أكثرهم على أنهم فروا من الطاعون، وحكى النقاش (١٩) أنهم فروا من مرض الحمى التي كانت لها صفة الانتشار.

الفوائد المستنبطة حول التعامل مع الوباء من هذه القصة:

١- **الخوف من المرض** إن المتأمل في هذه الآية يجد أن اللفظ القرآني جاء بـ ﴿خَرَجُوا﴾ ولم يقل (أُخْرِجوا) فهم خرجوا من بلدتهم بإرادتهم واختيارهم، ودون إكراه ولم يجبرهم أحد على الخروج، مما يدل على عِظم ما شعروا به من الخوف والهلع الشديد من الموت، والأصل أن الأرض غالية لا يغادرها أهلها بسهولة.ثم جاء التعبير القرآني ﴿مِن دِيَارِهِمْ﴾ ونسبها إليهم، فهي ديارهم التي يتحصنون بها ويعرفون مداخلها ومخارجها وأزقتها، لكن عدوهم الذي يحذرون هجومه مرض مجهول، لا يُرى بالعين المجردة، فهم يخرجون من ديارهم الفسيحة المريحة التي لا يشاركهم على خيراتها أحد، يتركونها إلى ديار مجهولة لا يعرفون ما ينتظرهم فيها. وليس العيب في خوفهم فالخوف ليس عاطفة معيبة أو غير طبيعية، بل هو غريزة كامنة في النفس الإنسانية، فطرت عليها نفوس البشر قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ [المعارج: ١٩]وقال سبحانه ممتناً على عباده: ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ [قريش:٤] لكن المعيب هو تعاملهم مع هذا الخوف وتعبيرهم السلوكي عنه، حيث تجاوز الحد الطبيعي إلى توقعهم للمكروه، مما حاد بهم عن اتخاذ القرار الصحيح.وقد ثبت حديثا أن الخوف الشديد يعمل على زيادة مستوى النشاط، وعدد الروابط العصبية في اللوزة الدماغية، وهي مركز الخوف في الدماغ، ومع تزايد نسب الكورتيزول، تنحسر الإشارات الكهربائية في جزءٌ مهمٌّ في الدماغ مسؤولٌ عن التعلم، وعندما ينخفض مستوى كفاءة هذا الجزء، تضعف القدرة على التحكم بالتوتر الناتج عن الخوف، مما يؤثر سلبا على التركيز، واتخاذ القرارات، إصدار الأحكام. (٢٠) فماذا حدث مع القوم؟ لقد اضطربت عقولهم من شدة الخوف من الموت، ولم يفكروا في العلاج أو سبل وقاية من المرض، أو مكافحته، حيث أن خروجهم أفواجا خوفا من الموت، وفي خروجهم وتحركهم دليل على أنهم غير مصابين، لكن الهروب لم يحقق ما أملوه، بل وجدوا ما خافوا وحذروا منه، فقال لهم الله: ﴿مُوتُوا﴾

٢- **الموقف الجماهيري** ﴿وَهُمْ أُلُوفٌ﴾ ألوف جمع كثرة من الألف، أكثر من الآلاف، وجاءت نكرة لتدل على العموم وزيادة العدد فهم مئات الآلاف أو يزيدون، غادروا ديارهم مسيطرا عليهم هاجس الخوف، مما يدلُّ على تأثير السلوك الجماعي في ردود فعل الأفراد حول الأزمات، فالمجتمعات تشهد موجات من الخوف عند تفشي الأوبئة، فتحدث تلك الموجات حجما خارقا للمألوف تحت تأثير العدوى، فالأفراد يتأثر بعضهم بالبعض الآخر فيضعف الإدراك الاجتماعي الفردي في زحمة الفوضى وانعدام التنظيم، فتنتشر الإشاعات وحالة الهلع، والمخاوف التي تؤدي إلى الاضطرابات. يرى غوستاف لوبون في كتابه (سيكولوجية الجماهير)، "أن الأفراد يقعون تحت التأثير السريع والمفاجئ لتصديق ما يمهد السبيل للأساطير والإشاعات، فتنتشر بسهولة فائقة، وأثبت أن هناك "تصرفاً واحداً للجماهير"، يخضع لدافع أو محرك يديره ويسيطر عليه، وهو هنا فايروس (الوباء)، والهلع والذعر الجماعي منه. (٢١) لذا فهم تعاملوا مع الوباء تحت تأثير الموقف الجماهيري والسلوك الجماعي، في ظل غياب المعلومات والتوقعات حول الوباء وكيفية انتشاره ومكافحته، فالأوبئة بطبيعتها أمراض جديدة لا تتوفر بشأنها المعرفة الكاملة، وكلّما كان الوباء خطيراً بسبب سرعة انتشاره وانتقاله بالعدوى والآثار التي يتركها على المصابين به، زادت المدة الزمنية بلا علاج واضح، والذي يفيده الوصف القرآني لهم ﴿خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ﴾ أنهم حشود كثيرة خرجوا من قرى متعددة في مناطق جغرافية متقاربة، مما يعني سرعة انتشار أخبار الوباء، وما أحدثه من ذعر جماعي، فلم تكن لهم مساحة متروكة للتفكير والاجتهادات الفردية، فخرجوا أملا في الخلاص، كما قال ابن جرير: تركوا منازلهم إلى الموضع الذي أملوا بالمصير إليه السلامة، وبالموئل النجاة من المنية، حتى أتاهم أمر الله، فتركهم جميعا خمودا صرعى، وفي الأرض هلكى، ونجا مما حلَّ بهم الذين باشروا كرب الوباء، وخالطوا بأنفسهم عظيم البلاء. (٢٢)

٣- **توقع المكروه ووهم النجاة** عبرت الآية الكريمة عن أن خوفهم كان من نوع توقع المكروه باللفظ ﴿حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ وهذه العبارة لم تأت في القرآن الكريم إلاّ مرتين، في هذا الموضع، والموضع الأخر في أول سورة البقرة ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ ۚ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ١٩]وعند تأمل الموضعين نجد أن في الموضع الأول أورد هذه العبارة كصفة للمنافقين، فإن من شأنهم الخوف الشديد والفزع، فهم يجعلون أصابعهم في آذانهم وكأنهم يريدون أن يهربوا من خطر الصواعق حتى لا يسمعوا لها صوتا، وبهذا يكونون قد نجوا من الموت، وهذا وهم وهروب وهمي معنوي من الموت، قال ابن كثير: ولا يجدي عنهم حذرهم شيئا لأن الله محيط بقدرته وهم تحت مشيئته وإرادته. (٢٣)

وهذه الآية تحكي أيضا الهروب المكاني من الموت، فقد ظنوا أنهم عندما يتركون ديارهم الموبوءة أنهم قد حصلوا على فرصة النجاة، وهو أيضا هروب وهمي من الموت، الذي سبب لهم هاجسا مؤرقا وذلك رغم وفرة عددهم الذين لو أعملوا عقولهم قليلا، وتجاوزا التفكير التقليدي، ولم يأخذهم الذعر الجماعي لكان من الممكن أن يكافحوا ويقاوموا ذلك المرض الذي هددهم بالموت. وأفاد التعبير ﴿حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ أيضا أن خطر الموت المترتب على العدوى لم يكن ماثلاً أو واقعاً بهم، ولا حتى متوقعاً بل هو الحذر والاحتياط من خطر قد يحل بهم، فما بالهم يغلبّون الاحتمال الضعيف وهو حصول الموت بسبب الوباء، ويتجاهلون المنهج الإيماني في التعامل مع البلاء بالصبر وحسن الظن بالله، وبذل الأسباب، وطلب العافية والنجاة.وقد بيّن النبي صلى الله عليه وسلم المنهج الصحيح في التعامل مع الوباء إذا وقع في البلد فقد روى الشيخانِ عن أسامة بن زيدٍ، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الطاعون رِجْس أرسل على طائفةٍ من بني إسرائيل، أو على من كان قبلكم، فإذا سمعتم به بأرضٍ فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرضٍ وأنتم بها فلا تخرجوا فرارًا منه" (٢٤)وسَألتْ عائشة رضي الله عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الطاعون، فأخبرها "أنه كان عذابًا يبعثه الله على من يشاء، فجعله الله رحمةً للمؤمنين، فليس من عبد يقع الطاعون، فيمكث في بلده صابرًا، يعلم أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له، إلا كان له مثل أجر الشهيد" (٢٥)، وقوله عليه السلام: "إذا وقع الطاعون بأرض فلا تدخلوها، وإذا وقع وأنتم بها فلا تخرجوا منها"(٢٦)وفي هذا الحديث يتجلى الإعجاز النبوي في منع الشخص المقيم في أرض الوباء أن يخرج منها، حتى وإن كان غير مصاب، فإن منع الناس من الدخول إلى أرض الوباء قد يكون أمراً واضحاً ومفهوماً، ولكن منع من كان في البلدة المصابة بالوباء من الخروج منها حتى وإن كان صحيحاً معافى أمر غير واضح العلة، بل إن العقل قد يفرض على الشخص السليم الذي يعيش في بلدة الوباء أن يفر منها–كما في هذه القصة– إلى بلدة أخرى سليمة، حتى لا يصاب بالعدوى، ولم تُعرف العلة في ذلك إلا في العصور المتأخرة التي تقدم فيها العلم والطب. فقد أثبت الطب الحديث – كما يقول الدكتور محمد علي البار – أن الشخص السليم في منطقة الوباء قد يكون حاملاً للميكروب، وكثير من الأوبئة تصيب العديد من الناس، ولكن ليس كل من دخل جسمه الميكروب يصبح مريضاً، فكم من شخص يحمل جراثيم المرض دون أن يبدو عليه أثر من آثاره أو علامات المرض، بل ويبدو الشخص وافر الصحة ومع ذلك فهو ينقل المرض إلى غيره من الأصحاء وهناك أيضاً فترة الحضانة، وهي الفترة الزمنية التي تسبق ظهور الأعراض منذ دخول الميكروب وتكاثره حتى يبلغ أشده، وفي هذه الفترة لا يبدو على الشخص أنه يعاني من أي مرض، ولكن بعد فترة من الزمن قد تطول وقد تقصر – على حسب نوع المرض والميكروب الذي يحمله – تظهر عليه أعراض المرض الكامنة في جسمه. (٢٧)

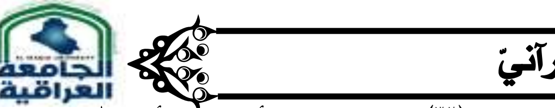
إنها المعجزة الربانية، والوحي الإلهي الذي نزل على النبي صلى الله عليه وسلم سابقا كل العلوم والمعارف.

٤– **فضل الله على عموم الخلق** ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ ثم تأتي هذه الخاتمة العميقة لقصة الذين خرجوا من ديارهم خشية الموت ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ﴾ والمقصود بالفضل أنه سبحانه وتعالى يعطي الأصل وزيادة (٢٨)، ثم جاء لفظ ﴿الناس﴾ ليشمل المؤمن والكافر "فأما الكفار فلم يشكروا وأما المؤمنون فلم يبلغوا غاية الشكر"(٢٩)وهذا العطاء والخير يستوجب الشكر، وإن من لوازم فضله سبحانه على الناس أن يشكروه ويحمدوه فلذلك استدرك بعده بـ ﴿وَلَٰكِنَّ﴾ فإن وقع الوباء وبقي واحتسب كُتب له أجر شهيد، كما في حديث عائشة رضي الله عنها – السابق– أنها سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الطاعون، فأخبرها "أنه كان عذابًا يبعثه الله على من يشاء، فجعله الله رحمةً للمؤمنين، فليس من عبد يقع الطاعون، فيمكث في بلده صابرًا، يعلم أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له، إلا كان له مثل أجر الشهيد" (٣٠) ولا شك أنه فضل عظيم من الله يستوجب الشكر ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ لأنهم لا يعلمون مدى النعمة فيما يجُريه الله سبحانه وتعالى عليهم من الأحكام والأقدار إماتةً أو إحياءً، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦] فالتعامل مع الوباء باعتباره نعمة وفضل من الله، والصبر عليه وطلب الأجر، هو منهج المؤمن الموقن بأن أمره كل خير "إن أصابته ضرَّاء صبر فكان خيرًا له، وإن أصابته سرَّاء شكر فكان خيرًا له" (٣١) صبور عند البلاء شكور عند الرخاء.

ثانيا: قصة (الذين بدّلوا القول من بني إسرائيل فكان العذاب وباءً مهلكاً)

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [البقرة: ٥٨–٥٩]

لقد تكرر في القصص القرآني الحديث عن بني إسرائيل، وما حصل من تكبرهم وعصيانهم وتكذيبهم الرسل وتحايلهم في تطبيق ما أمرهم الله به، وفي هذه القصة قضت حكمة الله عز وجل في أن يكون نزول الوباء عذابا لأصحابها بسبب كفرهم وتكذيبهم، فبدّل أولئك الجائرون من بني إسرائيل قول الله تبارك وتعالى الذي أمرهم أن يقولوه، فحرَّفوا ذلك القول على وجه هو غاية في الاستهزاء والسخرية، مما



ينبئ عن نفوس متمردة، فاستحقوا العذاب في صورة الوباء.وفي مجمل ما ذكره المفسرون [٣٢] في هذه الآية، أنهم بدّلوا أمر الله لهم من الخضوع بالقول والفعل، فأمروا أن يدخلوا الباب سجداً، فدخلوا يزحفون على أدبارهم رافعين رؤوسهم، فكان هذا تبديل الفعل، وأمروا أن يقولوا: حطة، أي احطط عنا ذنوبنا وخطايانا، فاستهزأوا وبدلو القول وقالوا: حنطة في شعيرة، وهذا في غاية ما يكون من المخالفة والمعاندة، ولهذا أنزل الله بهم ظلمةً وطاعوناً فهلك منهم فِي ساعة واحدة سبعون ألفاً جزاءً لفسقهم بتبديل ما أُمروا به. ومما يدل على أن عذابهم كان طاعونا ووباء تفشى فيهم حتى أهلك الذين فسقوا منهم، هو التعبير القرآني بـ ﴿رجزا﴾ وقد ذكر بعض العلماء أن الرجز من أسماء الطاعون. [٣٣] دلّ على ذلك ما أخبر به سعيد بن جبير والشعبي وغيرهم، وقال به ابن جرير الطبري وغيره من المفسرين ويقوي ذلك حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه عن الرسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "الطاعون رجز أو عذاب أُرسل على بني إسرائيل أو على من كان قبلكم" [٣٤] ومادة الرجز وردت في القرآن الكريم في عشرة مواضع فقط وردت في جميع تلك المواضع بصيغة الاسم ولم يأت هذا اللفظ بصيغة الفعل في القرآن. ولفظ (الرجز) في القرآن على ثلاثة معان أولها: بمعنى العذاب – كما في هذه الآية – وثانيها: بمعنى الكيد، قال تعالى ﴿وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ﴾ [الأنفال: ١١]، وثالثها: بمعنى الصنم، قال تعالى:﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ [المدثر: ٥]

الفوائد المستنبطة حول الوباء من هذه القصة:

١- عاقبة العصيان إهلاكهم بالوباء دليل على أن ذلك المرض الذي أصيبوا به اتصف بالانتشار السريع، وانتقال العدوى بينهم ففتكت بالآلاف منهم؛ جزاء فسقهم وعنادهم وتبديلهم لأمر الله، فيؤخذ من ذلك ضرورة البعد عن المعاصي والذنوب والفسق، وكذلك الاشتغال بإصلاح الحال بالتوبة والامتثال لشرع الله والاستغفار دائمًا.

٢- من أين أتاهم البلاء بيّن النص القرآني أن الرجز قد أتاهم من جهة السماء إشعارا بأنه وباء ومرض فتَّاك، لم يمكن مدافعته ولا منعه، وأنه لم يكن له سبب أرضي كاختلاف المناخ وتغير الهواء ونحو ذلك، بل رمتهم به الملائكة من جهة السماء، فأصيب به الذين ظلموا دون غيرهم.

٣- لطف الله عند نزول الوباء قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ دلّ ذلك أن العصيان والتمرد قد حصل من بعضهم أي من طائفة منهم، وهم الموصوفون بالظلم، ولم يقع من جميعهم، ذكر الطبري أن الوباء الذي وقع بهم لم يشمل الأبناء ففيهم الفضل والعبادة التي توصف في بني إسرائيل، وإنما أهلك الآباء كلهم [٣٥]، وهذا من فضل الله ورحمته وتمام عدله، فلا يقنط العبد من رحمة الله إذا وقع الوباء في أرضه فأمر المؤمن كله خير، وسينجي الله من يشاء من عباده.

٤- النعم تدوم بالشكر نعمة الله على بني إسرائيل هي حال تستوجب الشكر، وذلك إنهم لما انتهت مدة التيه وكان قد مات كل من: موسى وهارون عليهم السلام، وخلفهم في بني إسرائيل فتى موسى يوشع بن نون، وغزا بهم العمالقة وفتح الله تعالى عليهم بلاد القدس، أمرهم الله تعالى أمر إكرام وإنعام، فقال: ﴿ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ ، واشكروا لي هذه الأنعام بالنصر والعافية، فبدلاً من أن يقابلوا ذلك بالامتنان والشكران قابلوه بالعتو والاستهزاء والسخرية والنكران، فإذا صدر هذا عنهم في مقام الإنعام والإفضال، فما الظن بهم إذا كانوا في محنة وشدة؟ ماذا يفعلون! لذلك استحقوا العذاب في هيئة وباء مُهلك.

ثالثا: قصة (أيوب عليه السلام مع المرض)

قال تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ ۖ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣-٨٤] قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٤١-٤٣]في هذه القصة ننتقل من حال العقاب للعاصين بالوباء والمرض، إلى حال الابتلاء به للمؤمنين تمحيصا لصبرهم وامتثالهم أمر الله. وحينما نتحدث عن الصبر فإننا نجد أن أيوب عليه السلام ضرب أروع الأمثلة، فكان يقال: أيوب الصابر، فوصف الصبر كان ملازماً له عليه الصلاة والسلام. ومن أصح ما ذكره المفسرون [٣٦] في قصته أنه كان نبيا مبعوثا إلى قوم، وكان كثير الأولاد والدواب والأنعام والحرث والمال، فابتلي في ذلك كله، وذهب عن آخره، فأذن الله له في إصابته في جسده، فلم يبق منه سليم سوى قلبه ولسانه؛ يذكر بهما الله عز وجل، حتى عافَه الجليس، وأفرد في ناحية من البلد، ولم يبق من الناس أحد يحنو عليه سوى زوجته؛ كانت تقوم بأمره، لإيمانها بالله ورسوله، فكانت تخدم الناس بالأجرة، وتطعمه وتخدمه، وتعامل أيوب مع ذلك كله بصبر وحكمة وهو يبتهل إلى الله.أما عن ماهية الوباء الذي أصيب به فقد ذكر ابن كثير وغيره أنه أصيب بالجذام في سائر بدنه، وقيل: قروح في جسده، ولكنه لم يكن وباء منفِّراً، وانصراف الناس عنه كان



نوعا من الابتلاء؛ لأن الله تعالى عصم أنبياءه من الأمراض المنفرة، التي تؤدي إلى ابتعاد الناس عنهم، سواء أكانت أمراضاً جسدية، أم نفسية ونحوها. والذي يجب اعتقاده أن الله تعالى قد ابتلى عبده أيوب ببعض الأمراض التي لا تتنافي مع صفات النبوة، وقد صبر على ما ابتلاه الله به، حتى ضُرب به المثل في الصبر. وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: "أشد الناس بلاءً الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل﴾" (٣٧). وفي الحديث عنه عليه الصلاة والسلام أيضا قال: "إن نبي الله أيوب لبث به بلاؤه ثماني عشرة سنةً، فرفضه القريب والبعيد، إلا رجلين من إخوانه، كانا من أخص إخوانه، كانا يغدوان إليه ويروحان، فقال أحدهما لصاحبه: تعلم –والله–لقد أذنب أيوب ذنبًا ما أذنبه أحد من العالمين. فقال له صاحبه: وما ذاك؟ قال: منذ ثماني عشرة سنةً لم يرحمه الله فيكشف ما به. فلما راحا إليه لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له، فقال أيوب ﴿ربي أنه قد مسني الضر﴾" (٣٨)

الفوائد المستنبطة حول تعامل أيوب عليه السلام مع الوباء في هذه القصة :

١– الشكوى لله لا تتنافى مع الصبر إن المتأمل في نداء أيوب عليه السلام لربه يجد أنه لم يقل: اكشف ما بي من مرض وبلاء، ولكن توسل إلى الله بشكوى حاله، وشكوى الحال إلى الله كافية، فهو يسأل ربه أن يرفع عنه ما أصابه، وهذا الموضع فيه استجابة الله سبحانه وتعالى لنبيه. فإن قيل: أين الصبر، وهذا لفظ الشكوى؟ فالجواب: أن الشكوى لله لا تتنافى مع الصبر، بل هي عبادة يُؤجر عليها العبد فقد قال يعقوب عليه السلام: ﴿ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦]، إنما المذموم الشكوى إلى الخلق، وحال المشتكي هو الضجر والاعتراض على حكم الله "أما إذا شكا العبد إلى الناس وهو في شكواه راضٍ بقضاء الله، لم يكن ذلك جزعاً" فلا بأس (٣٩). وقد شكا رسول الله صلى الله عليه وسلّم لعائشة رضي الله عنها صداعا في رأسه، حين رجع يوم من جنازة بالبقيع، وكانت تجد صداعا في رأسها، فقالت له " وارأساه"، قال عليه الصلاة والسلام: "بل أنا يا عائشة، وارأساه"(٤٠)

٢– آداب الدعاء برفع الوباء قوله: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾ المس: الإصابة الخفيفة. والتعبير به حكايةً لما سلكه أيوب عليه السلام في دعائه من الأدب مع الله، إذ جعل ما حلّ به من الضرّ كالمسّ الخفيف، والمعروف أن الضُّرَّ أمر عظيم، وهو ما يتأذى منه المرء في جسده من مرض أو هزال، أو في ماله من زوال أو نقص ونحوه. قال ابن القيم: جُمِع في هذا الدعاء بين حقيقة التوحيد، وإظهار الفقر والفاقة إلى ربه، ووجود طعم المحبة في التملق له، والإقرار له بصفة الرحمة، وأنه أرحم الراحمين. والتوسل إليه بصفاته سبحانه، وشدة حاجة العبد وفقره إلى الله، ومتى وجد المبتلى هذا كشفت عنه بلواه، وقد جُرب أنه من قالها سبع مرات ولا سيما مع هذه المعرفة كشف الله ضره. (٤١)

٣– التعامل مع المريض المرض الجسدي سبب في وقوع الألم النفسي والذي هو ضرب من المرض، فالمبتلى في جسده هو أكثر عرضة لأذى النفس، وقد ارتبط ذلك في قصة أيوب عليه السلام بتعامل الناس معه، وانفضاضهم عنه لذا كان من أعظم الأعمال أجرا ومثوبة عيادة المريض والسؤال عنه، كما كان من هديه صلى الله عليه وسلم، قال عليه الصلاة والسلام:"عائد المريض في مخرفة (٤٢) الجنة حتى يرجع" (٤٣).وبذلك ندرك أن ابتلاء أيوب عليه السلام لم يكن فقط في الآلام الجسدية، بل تجاوزه إلى الألم النفسي وتمثل في انفضاض الناس عنه، وابتعادهم عنه، وعدم رغبتهم فيه من هذا البلاء الذي أصابه.

٤– هل يحق لشخص أن يحكم على مريض أن سبب ابتلائه بالمرض هو المعصية؟ قد يتعاظم الأذى النفسي من بعض من يتعامل مع المرضى، فينسبون علة مرضهم إلى ذنب أو خطيئة وكأنهم شقُّوا عن صدورهم، ووكلوا أنفسهم لمحاسبة الخلق، وهو ما حدث مع أيوب عليه السلام، فقد أتوه اثنين ممن آمن معه "فقال: "أحدهما للآخر يوم من الأيام لقد أذنب أيوب ذنبًا عظيمًا، وإلا لكشف عنه هذا البلاء، فما هذا الذي نزل به إلا أن يكون أذنب ذنبًا عظيمًا، فذكره الآخر لأيوب فازداد حزنًا، لظنهم به أنه عمل معصية شنيعة جدًا، ولولا ذلك ما جاءه هذا البلاء، فحزن ودعا الله حينئذ.." فأنزل فرجه عليه. (٤٤) ويؤخذ منه أن الوباء إذا وقع على شخص أو أهل بلد، ينبغي ألا يشتغل الناس ويرسلوا أحكامهم عليهم أنهم أهل معصية وذنوب، فهذا الأمر لله وحده بل يتحتم عليهم أن يشتغلوا بالدعوة إلى الصبر وملازمة الاستغفار وأخذ الأسباب في دفع الوباء.

٥– كان يعبد الله في البلاء لقد أثنى الله سبحانه وتعالى على أيوب عليه السلام بوصف العبودية فقال تعالى: ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠]، ورفعة مقام العبودية عند رب العالمين محلّ مدح، وهي ليست تنزيلاً من مرتبته، بل رفعة له، وثناء عليه. وقد جاء وصف الله عز وجل لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم في مواضع في كتابه الكريم أنه عبدٌ لله.

وأيوب عليه السلام تعبّد الله بصبره قال تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا﴾ [ص: ٤٤]، فابتُليَ بالضرّ العظيم، فلم يتسخط، ولم يشتك لغير الله، وصبر على طاعة ربه، وهو مع ذلك ﴿أَوَّابٌ﴾ أي رجّاع إلى الله سبحانه وتعالى، كثير الذكر له عز وجل، كثير المحبة في الشدة



والرخاء، فهو لا زال يعبد الله، وهو في البلاء، ويلجأ إليه ويدعوه سبحانه وتعالى، فاجتمع لأيوب أنواع الصبر. فعلى العبد أن يحرص على أداء عبادته حتى في حال مرضه ما استطاع إلى ذلك سبيلا، وقد نصت كتب الفقه على أحوال وكيفية عبادة المريض، وما شرعه الله تعالى له من رخص وأحكام قال الرسول صلى الله عليه وسلم في صلاة المريض:"صلِّ قائمًا، فإن لم تستطع فقاعدًا، فإن لم تستطع فعلى جنبٍ" (٤٥) وأيوب عليه السلام قدوة في ذلك فلم يمنعه مرض جسده من إعمار قلبه ولسانه بعبادة الله وذكره.

٦- أخذ الأسباب في دفع الوباء حينما أراد الله عزّ وجلّ أن يرفع عن أيوب عليه السلام البلاء قال الله له: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ [ص: ٤٢] ضرب أيوب برجله الأرض، فنبع الماء، يغتسل منه ويشرب، وهذا الماء النَّابع من الأرض في العادة يكون ساخنًا، لكن هذه المرة خرج باردًا بأمر الله عز وجل؛ لأن المياه إذا كانت جوفية وخرجت يكون فيها من حرارة الأرض، لكن هذه بأمر الله تعالى خرجت باردة، فاغتسل منها، وشرب، وذهب عنه كل داء كان بباطنه وظاهره بقدرة الله عز وجل وإرادته. قال قتادة رحمه الله:" ضرب برجله الأرض فإذا عينان تنبعان، فشرب من إحداهما، واغتسل من الآخر، وقال مقاتل: نبعت عين حارة، فاغتسل فيها، فخرج صحيحًا، ثم نبعت عين أخرى فشرب منها ماء عذبًا، وقيل أمر بالركض بالرجل ليتناثر عنه الداء الذي في جسده". (٤٦) وهذا دليل على حقيقة وأهمية قانون الأخذ بالأسباب فالله سبحانه وتعالى قادر بأمر ﴿كن﴾ أن يكشف عنه الضُّر ويزول المرض بدون سبب، لكن الله يريد أن يشرّع لعباده الأخذ بالأسباب، والبحث عن الشفاء والعلاج، وفي الحديث الصحيح "لكل داء دواء فإذا أصاب دواء الداء برأ بإذن الله" (٤٧)

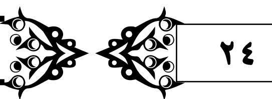
٧- الصبر على شدة الوباء موجب للزيادة في الخير الصبر على المرض والوباء سبب في مضاعفة الفرج، وحصول الرخاء الوفير بعد الشدة، في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "بينما أيوب يغتسل عرياناً، خرَّ عليه جراد(٤٨) من ذهب ، فجعل أيوب يحثو في ثوبه، فناداه ربه، يا أيوب! ألم أكن أغنيتك عما ترى؟ قال: بلى يا ربّ، ولكن لا غنى بي عن بركتك". ولهذا قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (٤٩) وحكى جمهور العلماء أنه تعالى أحيا له من مات من أهله، وعافى مرضاهم، وجمع عليه من شُتِّت منهم. وروى ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، في تفسير قوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ ، قال: "ردَّ الله تعالى امرأته إليه، وزاد في شبابها، حتى ولدت له ستاً وعشرين ذكراً". (٥٠) فلم تعد على أيوب عليه السلام صحته فحسب، بل أخلفه الله مالًا أكثر من ماله، وأولادًا وبنات أكثر ممن هلكوا له من قبل، فتكاملت له العافية ظاهراً وباطناً، وآتاه أكثر مما كان يأمله، وذلك فضل الله يؤتيه لمن صبر واحتسب.

٨- موقف القريب مع من أصابه الوباء لا شك أن من ابتُلي بوباء ومرض، يكون في أشد الحاجة إلى مساندة أقرب الناس إليه، وخير من يقوم بذلك زوجة محبة أو زوج وفيّ. فليس من اليسير على الإنسان أن يكون عنده كل هذا البلاء من مرض وضرر ثم بعد ذلك يبقى وحيدًا فريدًا، لا يأتيه أحد إلاّ في النادر. وعُلم من حال أيوب عليه السلام أنه طال مرضه حتى عافه الجليس، وأوحش منه الأنيس، ولم يبق أحد يحنو عليه إلا زوجته، كانت ترعى له حقه، وتعرف قديم إحسانه إليها، وشفقته عليها، فكانت تتردد إليه، وتصلح من شأنه، وتعينه على قضاء حاجته، وتقوم بمصلحته حتى ضعف حالها هي الأخرى، وقل مالها حتى كانت تخدم الناس بالأجرة لتطعم زوجها، وهي صابرة معه على ما حلَّ به من فراق المال والولد، والمصيبة، وضيق ذات اليد، والعمل عند الناس، ومع ذلك لم يزدها إلا إشفاقًا وصبرًا، ولم يزد هذا أيوب إلا احتسابًا وحمدًا وشكرًا"(٥١) إن في هذا لعبرة للزوجات المؤمنات بأن يصبرن على مرض أزواجهن، أو الأزواج أن يساندوا زوجاتهن المريضات، وفي امرأة أيوب عليه السلام قدوة في ذلك، كيف صبرت واحتسبت حتى كشف عن زوجها الغمة.

ويستثنى من ذلك إذا كان الوباء معديا فإن المساندة تكون بحسبها وبقدر استطاعتها حتى لا تصاب بالأذى.

رابعا: قصة عذاب أصحاب الفيل.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾ ﴾ [الفيل: ١-٥] يحدث أن يكون الوباء نعمة ونجاة لقوم وعقابا لآخرين في آنٍ واحد، كما في هذه القصة فتجتمع لحكمته سبحانه وتعالى المنَّة والعقاب في إنزال الوباء، وتتجلى قدرة الله في تغيير قواعد الأوبئة المعدية التي من سماتها الانتشار فيصيب بها من يشاء وينجي من يشاء. "فمن النعم التي امتن الله بها على قريش، أن صرف عنهم أصحاب الفيل، الذين كانوا قد عزموا على هدم الكعبة ومحو أثرها من الوجود، فأبادهم الله، وأرغم آنافهم، وخيّب سعيهم، وأضلّ عملهم، وردهم بشر خيبة"(٥٢)، وأصابهم بداء عضال هو الجدري الفتَّاك حتى تساقطت منه أناملهم، ورأوا قبل ذلك طيرًا ترميهم بحجارة لا تصيب أحدًا إلا هلك"(٥٣)وفي مجمل ما ذكره المفسرون (٥٤) حول قصة أصحاب الفيل ما يأتي: أنهم كانوا قوما نصارى، وكان دينهم إذ ذاك أقرب حالا مما كانت عليه



قريش من عبادة الأوثان، حيث بنى صاحب اليمن بيتا وأراد أن يرِد إليه حج العرب، فذهب أعرابي فأحدث في البيت الذي بناه، فغضب لذلك واجتمع في جموعه، فأقبل قائدهم أبرهة الأشرم الحبشي ومن تبعه من غواة أهل اليمن، وركب الفيل وقصدوا مكة، واستصحب معه فيلة كثيرة زيادة في الإرهاب والتخويف، ولم يزل سائرا يغلب من يلاقيه في طريقه من قبائل العرب، فلما وصلوا ظاهر مكة أرسل إلى قريش يخبرهم أنه لم يأت لحربهم، وإنما جاء لهدم البيت، ففزعوا منه، وانطلقوا إلى شعف الجبال ينظرون ما هو فاعل فلما أصبح أبرهة ليدخل مكة ويهدم الكعبة برَك فيله بذي (الغميس) (٥٥) وهو موضع بالقرب من مكة ولم يتوجه قِبَل مكة، فضربوه بالحديد، فلم يمش إلى ناحيتها وكان إذا وجهوه إلى غيرها هرول، فبينا هم كذلك في أمر الفيل، بعث الله عليهم طيراً جماعات جماعات ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ عند كل طائر ثلاثة أحجار في منقاره ورجليه، وكل حجر فوق العدسة ودون الحمصة، فرمتهم بتلك الحجارة، فكان الحجر منها إذا أصاب أحدهم، خرج به الجدري أو الحصبة، حتى هلكوا، وفشا في جند الحبشي داء تهاوت بسببه جلودهم. قال عكرمة: وهو أول جدري ظهر ببلاد العرب، ففعل ذلك الوباء بأجسامهم ما يندر وقوع مثله، فكان لحمهم يتناثر ويتساقط، فذعر الجيش وصاحبه وولّوا هاربين، وأصيب الحبشي ولم يزل لحمه يسقط قطعة قطعة، وأنملة أنملة، حتى انصدع صدره ومات قال عطاء بن يسار وغيره: ليس كلهم أصابه العذاب في الساعة الراهنة، بل منهم من هلك سريعا، ومنهم من جعل يتساقط عضوا عضوا وهم هاربون، وكان أبرهة الحبشي ممن يتساقط عضوا عضوا، حتى مات. وقال ابن إسحاق: فخرجوا يتساقطون بكل طريق، ويهلكون على كل منهل، وأصيب أبرهة في جسده، وخرجوا به معهم يسقط أنملة أنملة، حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر، فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه فيما يزعمون. فكفى الله أهل مكة أمر عدوهم، وغنموا أموالهم. حتى ذكر مقاتل بن سليمان: أن قريشا أصابوا مالا جزيلا من أسلابهم، وما كان معهم، وأن عبد المطلب أصاب يومئذ من الذهب ما ملأ حفرة.وحمى الله بيته المرقّع، فنزلت الآية منبهة على الاعتبار بهذه القصة، وكان لهذه الهزيمة أثر كبير في التاريخ وبين العرب.

الفوائد المستنبطة فيما يتعلق بالوباء من هذه القصة:

١- لم يصب الوباء أهل مكة رغم شدة فتكه وانتشاره إن المتأمل في هذه القصة يجد آية من الآيات الدالة على أن للكعبة عند الله حرمة عظيمة، وأنه بيته على هذه الأرض، الذي كان أول بيت وضع للناس، وأنه لا يزول حتى تزول معالم الحياة من هذا العالم.

ثم إن وقوع هذه الآية مع مطلع ميلاد النبي عليه الصلاة والسلام، هو آية من آيات الله، ودليل لما لرسول الله عند ربه من مقام كريم، فلا ينزل سوء ببلد هو فيه، فهو صلوات الله وسلامه عليه رحمة حيث كان، رحمة للناس، وبركة على المكان والزمان، فرحم الله قومه، وأكرمهم من أجله، فلم ينزل بهم ما نزل بالأقوام الضالين الذين عصوا رسلهم، بل عافاهم الله سبحانه من هذا البلاء.

٢- ضعف الإنسان أمام المرض ما حصل مع أصحاب الفيل دليل على ضعف الإنسان وذله أمام الحكم الإلهي قال تعالى: ﴿وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨]، فهذا الطاغية الذي أراد أن يهدم البيت، وهو في أوج قوته أرسل الله إليه الطير، ورموا بمادة الجدري أو الحصبة، فأهلكته وجعلته في أوهن أشكاله فقُهِر قبل أن يدخل مكة، وهي نعمة من الله غمر بها أهل حرمه على وثنيتهم، حفظا لبيته.

٣- الوباء والعالم الوباء غالبا ما ينتج من أسباب خفية غير مشاهدة، ويصل فتكه في البشر أقوى من فتك الحروب ومواجهة الأعداء، لذا يتوجب على الحكومات والشعوب إعداد العدة العلمية والمادية لمواجهته.

المبحث الثالث: مسائل متعلقة بالوباء في القصص القرآني ودراستها

أولا: هل يدخل الوباء مكة؟

يدعونا التأمل في قصة أصحاب الفيل، وما حدث من عدم انتشار الوباء فيها، وسلامة قريش منه وكذلك ما ورد في السنة من أنه لما دخل النبي صلى الله عليه وسم وأصحابه المدينة تأثر بعض الصحابة بوبائها حيث قال عليه الصلاة والسلام" اللهم حبّب إلينا المدينة كحبّنا مكة أو أشد" (٥٦)، فأجاب الله دعوة نبيه صلى الله عليه وسلم فأحبوا المدينة حبا دام في نفوسهم إلى أن ماتوا عليه.

فمكة قد ملكت شغاف القلب، وتوطنت الفؤاد فهي الموطن والأمان، ومهوى أفئدة أهل الإيمان، وما كان من اشتياق الصحابة لها عند توجعهم بحمى المدينة، حتى أنشد بلال رضي الله عنه عندما أقلعت عنه الحمى:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلةً ... بواد وحولي إذخر وجليل (٥٧)

وهل أرِدن يومًا مياه مجنّة ... وهل يبدون لي شامة وطفيل (٥٨)

وكأن سائلا يقول: وهل كانت مكة بمنأى عن دخول المرض إليها وهل كانت أرض لا تجتاحها الأوبئة؟! ويزيد هذا الإشكال ما ورد من اختلاف بين العلماء في المقصود بالأمن في البلد الحرام في قوله تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧]

فقد اختلفوا في بيان ذلك إلى الأقوال التالية:

- منهم من قال: إن من دخله يأمن من عذاب النار في الآخرة.
- ومنهم من قال: إن من دخله يأمن من الموت على غير الإسلام.
- وقال بعضهم: إن المعنى: أن من دخل الحرم يأمن من الأمراض.
- وقال آخرون: إن معنى الآية: الأمن من القتل. وقيل: إن ﴿ومَنْ﴾ ها هنا لمن لا يعقل، والآية في أمان الصيد.

وكل ذلك من الأقوال مرجوحة وضعيفة، لا تصح لأن واقع الأمر يردها؛ لوجود كل ذلك، كمن مات على الكفر والردة، وكان قد دخل الحرم، ولوجود المرض والوباء فيه، وكذا حصول القتل فيه، قديماً، وحديثاً.

أما الراجح والمعتبر من أقوالهم ما يأتي (٥٩): أن معنى الآية: أن هذا الأمن على النفس من سمات الحرم؛ لأن الناس كانوا يُتخطفون من حوله، ولا يصل إليه جبار، فقصد الله تعالى بذلك تعديد النعم على كل مَن كان بها جاهلاً أو منكراً من العرب. قال ابن القيم: وهذا إمّا خبر بمعنى الأمر، وإما خبرٌ عن شرعه ودينه الذي شرَعه في حرمه، وإما إخبارٌ عن الأمرِ المعهود المستمِرِ في حرمه في الجاهلية والإسلام كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧]، فكانوا في الجاهلية من دخله ولجأ إليه: أَمِن من الغارة، والقتل. (٦٠)ومن أقوال المفسرين المقبولة في المقصود بأمن مكة في الآية: أن مَنْ دخله عام " عمرة القضاء " مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كان آمِناً، كما لقال تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٧] والقول الأول الذي ذكره ابن القيم هو الأليق بمعنى الآية.فقوله سبحانه: ﴿وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ يعني: وجب أن يؤمَّن، وليس المعنى أنه لا يقع فيه أذى ولا قتل لأحدٍ، بل ذلك قد يقع، وإنما المقصود: أن الواجب تأمين من دخله، وعدم التعرض له بسوء. وكانت الجاهلية تعرف ذلك، فكان الرجل يلقى قاتل أبيه أو أخيه فلا يؤذيه بشيء حتى يخرج.قال الحسن البصري وغيره: "كان الرجل يَقتُل ويدخل الحرم فيلقاه ابن المقتول فلا يهيجه حتى يخرج. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: من عاذ بالبيت أعاذه البيت، ولكن لا يؤوى ولا يطعم ولا يسقى، فإذا خرج أخذ بذنبه. وقال أيضا: من أحدث حدثا ثم استجار بالبيت فهو آمن، وليس للمسلمين أن يعاقبوه على شيء إلى أن يخرج فإذا خرج أقاموا عليه الحد"(٦١). وعلى هذا: ليس المقصود بالأمنِ الأمنَ من الأمراض والأوبئة، فالأمراض والأوبئة قد تنزل أرض الحرم المكي والمدني، وهذا معروف، قديماً، وحديثاً.أما الوباء الذي لا يدخلها فهو الطاعون، فمكة والمدينة محفوظتان منه وقد جاء في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "المدينة ومكة محفوفتان بالملائكة، على كل نقب منها ملَك لا يدخلها الدجال، ولا الطاعون" (٦٢)، وليستا محفوظتين من سائر الأمراض العامة والأوبئة.

ثانيا: الدعاء برفع الوباء يتضمن الدعاء برفع الموت، فكيف يكون ذلك والموت حتمي؟

قد يشكل على البعض من قصة أيوب عليه السلام حين تأخر في دعاء الله برفع الضر عنه، حتى قالت له امرأته: "ادع الله فيشفيك"، فجعل لا يدعو، حتى مرّ به نفر من بني إسرائيل، فقال بعضهم لبعض: ما أصابه إلا بذنب عظيم أصابه، فعند ذلك قال: "رب إني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين". (٦٣) فقد يظن البعض أن تأخيره الدعاء برفع المرض من لوازم الصبر عليه. وكأن سائلهم يقول: هل نصبر على الابتلاء والمرض أم ندعو الله بالشفاء؟ كما أشكل على آخرين الدعاء برفع الوباء لأنه يتضمن الدعاء برفع الموت، والموت حتْم مقضيّ، وقدر آت لا مفرّ ولا محالة منه، ويستدلون بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤]

وبيان رد هذه الإشكالات من الأوجه التالية:

- إن أيوب عليه السلام كان يذكر الله كثيرا، ولا يزيده البلاء في الله إلاّ رغبة وحسن إيمان، فلما انتهى الأجل، وقضى الله أنه كاشف ما به من ضرّ أذِن له في الدعاء، ويسرَّه له، فلما دعا استجاب له، وأبدله بكل شيء ذهب له ضعفين، فردّ إليه أهله ومثلهم معهم، وأثنى عليه فقال: ﴿إنا وجدناه صابرا﴾ [ص: ٤٤]. (٦٤)
- يرد على ذلك بفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم بدعائه برفع الحمى عن المدينة، وذلك صريح في الالتجاء إلى الله عند وقوع الوباء وطلب رفعه، فلمّا رأى ما نزل بأصحابه من الحُمَّى والوباء خشي كراهية البلد، لما في النفوس من استثقال ما تكرهه، فدعا الله في رفع الوباء عنهم.
- وقد أجاب ابن حجر عن هذا الإشكال بأن الدعاء برفع الوباء لا ينافي التعبّد؛ لأنه قد يكون من جملة الأسباب في طول العمر أو رفع المرض، وقد تواترت الأحاديث بالاستعاذة من الجنون والجذام وسيء الأسقام ومنكرات الأخلاق والأهواء والأدواء، فمن ينكر التداوي بالدعاء

يلزمه أن ينكر التداوي بالعقاقير، ولم يقل بذلك إلا شذوذ، والأحاديث الصحيحة ترد عليهم، وفي الالتجاء إلى الدعاء مزيد فائدة ليست في التداوي بغيره؛ لما فيه من الخضوع والتذلل لله سبحانه بل منع الدعاء من جنس ترك الأعمال الصالحة اتكالًا على ما قُدِّر فيلزم ترك العمل جملةً. (٦٥)

- أباح الله عز وجل للمؤمن أن يسأل ربه الصحة لجسمه، وذهاب الآفات عنه إذا نزلت به، كسؤاله إياه في الرزق والنصر، وليس في دعاء المؤمن ورغبته في ذلك إلى الله لوم ولا قدح في دينه، ذكر ذلك العيني في شرحه على صحيح البخاري وقال: "وفى هذا رد على الصوفية في قولهم: إن الولي لا تتم له الولاية إلا إذا تم له الرضا بجميع ما نزل به، ولا يدعوا الله في كشف ذلك عنه، فإن دعا فليس من الولاية في حال الكمال، وقولهم مردود بفعله عليه الصلاة والسلام وأصحابه، فقد كان إذا نزل به شيء يكثر عليه الدعاء والرجاء في كشفه". (٦٦)

- فصرح هنا بمنهج رسول الله صلى الله عليه وسلم عند الوباء وهو كثرة الدعاء والالتجاء إلى الله في كشفه، ثم رد على من يظن أن ذلك يتنافى مع قوة الإيمان، أو الرضا بالقدر. وقد سارت المجتمعات المسلمة على هذا المنهج، وهو الدعاء برفع البلاء والإكثار من العبادات كالصدقة والصلاة والصيام؛ تقربا لله من أجل رفعه، ففي سنة ٧٤٩ هـ وقع وباء شديد، ومات كثير من الناس في كثير من البلدان، فقام المجتمع يتقدمه الأمراء والعلماء ثم عامة الناس بالصلاة والدعاء. ذكر ابن كثير في البداية والنهاية أن الناس في دمشق لما بلغهم من حلول المرض في السواحل وغيرها من أرجاء البلاد، اجتمعوا بمحراب الصحابة ودعوا برفع الوباء عن البلاد، وقرأوا متوزعين سورة نوح ثلاثة آلاف مرة وثلاثمائة وثلاث وستين مرةً، عن رؤيا رجل أنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أرشده إلى قراءة ذلك. وكثر الموت في الناس بأمراض الطواعين وزاد الأموات كل يوم على المائة، فكان إذا وقع في أهل بيت لا يكاد يخرج منه حتى يموت أكثرهم، قال: وقد توفي في ذلك الوقت خلق كثر وجم غفير، ولا سيما من النساء، فإن الموت فيهم أكثر من الرجال بكثير. وشرع الخطيب في القنوت بسائر الصلوات والدعاء برفع الوباء، وحصل للناس بذلك خضوع وخشوع وتضرع وإنابة، وكثرت الأموات جدًا، وزادوا على المائتين في كل يوم، وتضاعف عدد الموتى منهم، وتعطلت مصالح الناس، ثم نودي في البلد أن يصوم الناس ثلاثة أيام وأن يخرجوا في اليوم الرابع وهو يوم الجمعة إلى المسجد يتضرعون إلى الله ويسألونه في رفع الوباء عنهم، فصام أكثر الناس ونام الناس في الجامع وأحيوا الليل كما يفعلون في شهر رمضان، فلما أصبح الناس خرجوا من كل فج عميق، واليهود والنصارى، والشيوخ والعجائز والصبيان، والفقراء والأمراء والكبراء والقضاة من بعد صلاة الصبح، فما زالوا هنالك يدعون الله تعالى حتى تعالى النهار جدًا، وكان يومًا مشهودًا.وتكرر المشهد في زمان الحافظ ابن حجر العسقلاني –أي في القرن التاسع– فخرج الناس إلى الصعدات يجأرون بالدعاء ويتصدقون ويبتهلون. (٦٧)وبذلك يستبين الأمر ويُدفع الإشكال، فالدعاء بكشف الكرب ورفع الضر لا ينافي خلة الصبر أو يقدح في مقام الصابرين.

ثالثا: التشاؤم بالسنين التي يقع فيها المرض

حينما نتأمل في قصص القرآن فإننا لا نجد أن أيوب عليه السلام سمى سنين مرضه بسني الضر، ولم تطلق قريش على عام الفيل بعام الجدري، وحتى عبر التاريخ عندما وقع الطاعون في الشام لم يسموا الصحابة ذلك العام بعام الطاعون، وإنما أطلق عليه بطاعون عمواس تقييدا له باسم القرية التي انتشر فيها، وكذلك ما وقع من المرض الذي فتك بالمئات في القرن الثامن– كما سبق ذكره– في البداية والنهاية، مما دلّ أنه لم يقع التشاؤم بالسنة التي وقع فيها المرض. يحدث من البعض في ظل الجائحة والوباء الذي قدر الله وقوعه في هذه السنة ١٤٤١هـ –٢٠٢٠م من تشاءَم بها لاسيما أنه وقع في أوائل السنة، فانتشرت الكتابات ومواقف الناس في وسائل التواصل الاجتماعي وغيرها حول التضجر والتشاؤم من العام. بل وبلغ بالبعض إلى سبه، وتوقعوا حصول الشر والمكروه بصورة أدّت إلى نشر الخوف والقلق في قلوب الناس، وإضعاف قدرتهم على التعامل مع أقدار الله، لأن في ذلك نوع من فقدان الأمل، والشعور باليأس وهو أمر حذرت منه الشريعة الإسلامية، بل هو من عمل الجاهلية الذين كانوا يتطيرون بشهور وأزمان معينة بسبب حوادث وقعت فيها. ومما جاء من تحذير الشرع من الطيرة والتشاؤم بالسنين والأيام، قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: قال الله عز وجل: " يؤذيني ابن آدم يقول: يا خيبة الدهر فلا يقولن أحدكم: يا خيبة الدهر فإني أنا الدهر، أقلب ليله ونهاره، فإذا شئت قبضتهما "(٦٨).وذكر عز وجل عن القوم الذين كذّبوا الرسل وهم أصحاب القرية أنهم: ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يس: ١٨] وحكى القرآن الكريم عن قوم صالح عليه السلام أنهم ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ [النمل: ٤٧] وذكر عن المشركين قولهم للرسول صلى الله عليه وسلم: ﴿إِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ

﴿لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨] وهكذا لا نجد في قصص القرآن أن الله تعالى ذكر التشاؤم والتطير إلاّ عن الكفار، فدلّ ذلك على أن التطيّر والتشاؤم ليس من أمر الإسلام في شيء، وإنما هو من أمور الجاهلية ولذا نهى الله ورسوله عليه الصلاة والسلام عنه وجعل الشرع اعتقاده مناقضًا للتوحيد، وأخبر أنه وسيلة من وسائل الشرك وزعزعة يقين قلب المؤمن وكان من شأن العرب في الجاهلية سبُّ الدهر عند النوازل والحوادث والمصائب النازلة بهم، من موت أو هرم أو تلف مال أو غير ذلك، فيقولون: "يا خيبة الدهر" ونحو هذا من ألفاظ سب الدهر فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "لا تسبّوا الدهر فإن الله هو الدهر" (٦٩) أي: لا تسبوا فاعل النوازل فإنكم إذا سببتم فاعلها وقع السبّ على الله تعالى؛ لأنه هو فاعلها ومنزلها، وأما الدهر الذي هو الزمان فلا فعل له بل هو مخلوق من جملة خلق الله تعالى، ومعنى "فإن الله هو الدهر" أي فاعل النوازل والحوادث وخالق الكائنات. كما ذم الله سبحانه وتعالى تشاؤم آل فرعون من موسى ومن معه بقوله سبحانه: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ﴾ [الأعراف: ١٣١] أي يقولون: هذا بشؤم موسى ومن معه، وما أصابنا من مرض وبلاء إلا بسبب شؤمهم وشرّهم، فأنكر الله عليهم بقوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ﴾ [الأعراف: ١٣١]. والأدلة واضحة بأن الأمراض إذا حصلت المخالطة لأهلها يحصل بإذن الله الانتقال، وقد يحصل الاختلاط دون العدوى، وهي لا تنتقل من شخص لآخر ولا تضر العدوى إلا إذا شاء الله ذلك وقدّر، أي: لا بد من اعتقاد أن العدوى لا تحصل إلا بقضاء الله وقدره، فإذا شاء الله أن يصاب شخص بالعدوى ويمرض، جعل أسباب العدوى ساريةً ومؤثرة، وأسباب المرض سارية ومؤثرة، وإن شاء الله سلب أسباب العدوى قدرتها على التأثير، فلا أثَرَ للعدوى إلا بمشيئة الله وحده، ولا عدوى مؤثرة بنفسها، بل بإذن الله إلاّ أنّ الإقدام على مواطن الخطر بلا ضرورة، وعدم أخذ الأسباب في مدافعتها والوقاية منها من الإلقاء إلى التهلكة، والله تعالى يقول: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥ فلا ينبغي أن يقال: هذه سنة شؤم أم يوم مشؤوم، ونحوها من الألفاظ وليتيقن المسلم كل شيء بقدر وكل شيء بأمر الله عز وجل: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩] ولا يخفى ما للتشاؤم من تأثير سلبي على صحة الإنسان، فهو إن تمكّن من الإنسان عطّل طاقاته وشلّ قدراته، وجعل منه جثة هامدة تمشي على الأرض، فاليأس مرضٌ قاتل، بل وباء مستشر فتّاك، يسلب المناعة ويجعلها عرضة للموت والاندحار، بعكس التفاؤل وحصول الرضى بقضاء الله.ولنا في يعقوب عليه السلام أسوة حسنة، إنه مدرسة في كيفية المحافظة على جذوة الأمل مشتعلة في النفس على الرغم من جميع تلك العوارض والأزمات التي مرّ بها، فقد عانى ألم الفقد والحزن الذي حل به، حين أخبره أبناؤه بموت ابنه يوسف، ثم حين بلغه خبر احتجاز ابنه الآخر بعد سنين من تلك الحادثة، ولنا أن نتخيل مدى الضغط الكبير والكمد الذي تحمّله الأب المفجوع على فراق ابنيه، إلاّ أنّ حسن ظنّه بربه كان ماثلا متمكنا من قلبه، فحصل له الاتزان النفسي والسلوكي فقال: ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ [يوسف: ٨٣]

الخاتمة

الحمد لله وكفى والصلاة والسلام على نبيه الذي اصطفى.. وبعد لقد وضعت في هذا البحث ما يسره الله تعالى لي من تدبر ما جاء في قصص القرآن من توجيهات وفوائد مستنبطة للتعامل مع الوباء. وهذه بعض النتائج والفوائد التي توصلت إليها من خلال الدراسة، التي لا أدعي أنها شاملة لجوانب هذا الموضوع، ولكنها جهد مقلّ، أرجو الإخلاص فيها والثواب من الله تعالى:

أولا: النتائج:

- تعد القصة القرآنية من أبرز الأساليب التي استخدمها الخطاب القرآني في بناء شخصية المسلم المتزنة عقيدة وسلوكا.
- المقصود بالوباء هو عموم الأمراض، ولم يرد بهذا اللفظ في القرآن الكريم وإنما ورد بمعنى السُّقم في موضعين، وبمعنى المرض في (١٩) موضعا، اختصت (٦) مواضع منها بأمراض الأجساد، والباقي تعلقت بأمراض القلوب فهي تمرض كما تمرض الأبدان.
- الغرض من إنزال المرض في القرآن الكريم أمرين إما العذاب وإما الابتلاء، وقد استعمل في مواطن العذاب للمكذبين، ومواطن الابتلاء للأنبياء والمؤمنين.
- التوجيه بأهمية الوقاية من الوباء وبذل الأسباب في مدافعة الأمراض، كما حث الشرع على التداوي والبحث عن العلاج، باعتبار النفس من الضرورات الخمس التي جاءت الشريعة بالحفاظ عليها.
- تأثير الموقف الجماهيري والسلوك الجماعي على تعامل المجتمع مع الوباء، في ظل غياب المعلومات والتوقعات حول الأوبئة وكيفية انتشارها، لذا توجب التأني وعدم الانسياق وراء المواقف الجماعية دون تثبت واستقصاء للمعلومات الدقيقة من مصادرها.

- منهج المؤمن الموقن بأن أمره كل خير، هو التعامل مع الوباء باعتباره نعمة وفضل من الله ليصبر عليه وينال الأجر، ونجد ذلك جليا في قصة أيوب عليه السلام، فهو لا يفتأ أن يكون صبور عند البلاء شكور عند الرخاء.
- أن الشكوى لله لا تتنافى مع الصبر، بل هي عبادة يُؤجر عليها العبد، والمذموم الشكوى إلى الخلق بتضجر واعتراض على حكم الله أما إذا شكا العبد إلى الناس، وهو في شكواه راضٍ بقضاء الله، لم يكن ذلك جزعاً فلا بأس.
- يجب ألا يحكم الناس على من حلّ بهم الوباء سواء أشخاص أو أهل بلد أنه بسبب معاصيهم، ولا يتشغلوا بذلك ويرسلوا أحكامهم عليهم أنهم أهل معصية وذنوب فهذا الأمر لله وحده بل يُشتغل بالدعوة إلى الصبر، وملازمة الاستغفار وأخذ الأسباب في دفع الوباء.
- الصبر على المرض والوباء سبب في مضاعفة الفرج وحصول الرخاء الوفير بعد الشدة.
- مكة والمدينة محفوظتان من الطاعون، وليستا محفوظتين من سائر الأمراض العامة والأوبئة.
- الدعاء بكشف الكرب ورفع الضر لا ينافي التعبد إلى بالصبر.
- النهي عن التشاؤم بالسنين والأيام التي وقع فيها الوباء، والدعوة إلى التفاؤل وحسن الظن بالله تعالى حيث كان هذا مسلك الأنبياء والمؤمنين الصابرين.
- الإعجاز العلمي في السنة، والذي يظهر في التوجيه الوقائي الذي أمر به النبي صلى الله عليه وسلم في منع الدخول إلى أرض الوباء ومنع الخروج منها إذا وقع وهو داخلها، وقد توافق ذلك مع الحقائق العلمية المعاصرة وأصبح العالم أجمع يطبق إجراءات الحجر الصحي، ومنع التنقل بين المناطق الموبوءة مما كان له الأثر الفعال في احتواء انتشار الوباء.
- يتحتم على الحكومات والدول إعداد العدة العلمية والمادية لمواجهة الأوبئة ووضع الخطط والبرامج الاستباقية لمكافحتها، لأن الوباء غالبا ما ينتج من أسباب خفية غير مشاهدة، ويصل فتكه في البشر أقوى من فتك الحروب ومواجهة الأعداء.
- أهمية رفع الوعي الفردي والمجتمعي في كيفية التعامل مع الأوبئة، ونشر ثقافة الحكمة في التعامل مع الأزمات، وبذل كافة الجهود للالتزام بما توجهه إليهم حكوماتهم.

ثانياً: التوصيات:

- توصي الدراسة بتوجيه مزيداً من الاهتمام إلى تناول الدراسة الموضوعية للقصص القرآني، واستنباط الأحكام والدروس منها في جوانب تنمية شخصية الإنسان، ومعالجة مشكلات الحياة، مما يثري مكتبة الدراسات القرآنية.
- توصي الدراسة إلى ضرورة دعم البحوث العلمية، والمراكز البحثية المتنوعة التي تعالج موضوعات إنسانية كالأوبئة وغيرها.
- إضافة موضوع فقه الأوبئة وكيفية تعامل المجتمعات معها في ضوء الشريعة الإسلامية إلى المناهج الدراسية، ورفع الوعي بالبرامج والأنشطة والدورات التوعوية المختلفة التي تنمي سلوك الفرد أمام الأزمات.

أسأل الله تعالى أن يرزقنا السداد في الأقوال والأفعال، وأن يرفع البلاء ويدفع الوباء، وأن يغفر لي ما كان مني من خطأ وجهل، وأن ينفعني والمسلمين بهذا العمل، وألا يحرمنا من فضله إنه سميع مجيب.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

والحمد لله رب العالمين

فهرس أهم المراجع

1 الدعاء للطبراني المؤلف: سليمان بن أحمد بن أيوب الشامي، أبو القاسم الطبراني المتوفى: ٣٦٠هـ المحقق: مصطفى عبد القادر عطا الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة: الأولى، ١٤١٣

2 المستدرك على الصحيحين المؤلف: أبو عبد الله الحاكم محمد الطهماني النيسابوري المعروف بابن البيع المتوفى: ٤٠٥هـ تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة: الأولى، ١٤١١ – ١٩٩٠

3 الإعجاز العلمي في الإسلام والسنة النبوية، المؤلف: محمد كامل عبد الصمد

4 البداية والنهاية المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي المتوفى: ٧٧٤هـ المحقق: علي شيري الناشر: دار إحياء التراث العربي الطبعة: الأولى ١٤٠٨، هـ – ١٩٨٨ م



5 التحرير والتنوير المؤلف: محمد الطاهر بن محمد بن عاشور التونسي المتوفى: ١٣٩٣هـ الدار التونسية للنشر –سنة النشر: ١٩٨٤ هـ

6 التوقيف على مهمات التعاريف المؤلف: زين الدين محمد بن علي المناوي المتوفى: ١٠٣١هـ الناشر: عالم الكتب ٣٨ عبد الخالق ثروت-القاهرة ط١-١٤١٠هـ

7 الجامع لأحكام القرآن المؤلف: أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي المتوفى: ٦٧١هـ الناشر: دار الكتب المصرية – القاهرة الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ – ١٩٦٤

8 الدر المنثور المؤلف: عبد الرحمن ، جلال الدين السيوطي المتوفى: ٩١١هـ الناشر: دار الفكر – بيروت الطبعة: الأولى – ١٤٢٢ هـ

9 الذكاء العاطفي للمستشارة والمدربة جيل دان – مكتبة جرير

10 السنن المأثورة للشافعي المؤلف: إسماعيل ، أبو إبراهيم المزني المتوفى: ٢٦٤هـ المحقق: د. عبد المعطي أمين قلعجي دار المعرفة – بيروت الطبعة: الأولى، ١٤٠٦

11 الفوائد المؤلف: محمد بن أبي بكر شمس الدين ابن قيم الجوزية المتوفى: ٧٥١هالناشر: دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة: الثانية، ١٣٩٣ هـ – ١٩٧٣ م

12 المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز المؤلف: أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي المتوفى: ٥٤٢هـ المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت

13 الموسوعة الميسرة في الاعجاز العلمي شحاتة صقر

14 النهاية في غريب الحديث والأثر المؤلف: مجد الدين أبو السعادات المبارك الجزري ابن الأثير المتوفى: ٦٠٦هـ الناشر: المكتبة العلمية – بيروت، ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م تحقيق: طاهر أحمد الزاوي – محمود محمد الطناحي

15 إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري المؤلف: أحمد بن محمد بن أبى بكر بن عبد الملك القسطلاني القتيبي المصري، أبو العباس، شهاب الدين المتوفى: ٩٢٣هـ الناشر: المطبعة الكبرى الأميرية، مصر الطبعة: السابعة، ١٣٢٣ هـ

16 أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير المؤلف: جابر بن موسى أبو بكر الجزائري الناشر: مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية الطبعة: الخامسة، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م

17 تاج العروس من جواهر القاموس المؤلف: محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى، الزَّبيدي المتوفى: ١٢٠٥هـ مجموعة من المحققين الناشر: دار الهداية

18 تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم المؤلف: أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس، الحنظلي، الرازي ابن أبي حاتم المتوفى: ٣٢٧هـ المحقق: أسعد محمد الطيب الناشر: مكتبة نزار مصطفى الباز – السعودية الطبعة: الثالثة – ١٤١٩ هـ

19 تفسير القرآن العظيم. المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي المتوفى: ٧٧٤هـ المحقق: سامي بن محمد سلامة الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩ م

20 تفسير القرآن الكريم المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية المتوفى: ٧٥١هـ المحقق: مكتب الدراسات والبحوث العربية والإسلامية بإشراف الشيخ إبراهيم رمضان الناشر: دار ومكتبة الهلال – بيروت الطبعة: الأولى – ١٤١٠ هـ

21 تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان لعبد الرحمن بن ناصر السعدي– الناشر: مؤسسة الرسالة

22 جامع البيان في تأويل القرآن المؤلف: محمد بن جرير أبو جعفر الطبري المتوفى: ٣١٠هـ المحقق: أحمد محمد شاكر–الناشر: مؤسسة الرسالة ط١، ١٤٢٠ هـ –

23 زاد المسير في علم التفسير المؤلف: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي المتوفى: ٥٩٧هـ المحقق: عبد الرزاق المهدي الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت الطبعة: الأولى – ١٤٢٢ هـ



24 زاد المعاد في هدي خير العباد المؤلف: محمد بن أبي بكر شمس الدين ابن قيم الجوزية المتوفى: ٧٥١هـ الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت – مكتبة المنار الإسلامية، الكويت الطبعة: السابعة والعشرون , ١٤١٥هـ /١٩٩٤م

25 سيكولوجية الجماهير تأليف غوستاف لو بون/ترجمة: هاشم صالح

26 صحيح البخاري المؤلف: محمد بن إسماعيل البخاري الناشر: دار طوق النجاة مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي ط–، ١٤٢٢هـ

27 صحيح مسلم المؤلف: مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري ت: محمد فؤاد عبد الباقي الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت

28 عمدة القاري شرح صحيح البخاري المؤلف: أبو محمد محمود بن أحمد بدر الدين العينى المتوفى: ٨٥٥هـ الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت

29 فتح الباري شرح صحيح البخاري المؤلف: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي الناشر: دار المعرفة – بيروت، ١٣٧٩رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب

30 لسان العرب: محمد، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الإفريقى المتوفى: ٧١١هـ دار صادر – بيروت ط: الثالثة – ١٤١٤ هـ

31 محاسن التأويل – محمد جمال الدين بن محمد سعيد القاسمي المتوفى: ١٣٣٢هـ الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة: الأولى – ١٤١٨ هـ

32 مسند الإمام أحمد بن حنبل المؤلف: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني المتوفى: ٢٤١هـ المحقق: أحمد محمد شاكر الناشر: دار الحديث – القاهرة الطبعة: الأولى، ١٤١٦ هـ – ١٩٩٥ م

33 مشارق الأنوار على صحاح الآثار: عياض بن موسى اليحصبي السبتي، أبو الفضل المتوفى: ٥٤٤هـ دار النشر: المكتبة العتيقة ودار التراث

34 معجم البلدان المؤلف: ياقوت بن عبد الله الحموي أبو عبد الله الناشر: دار الفكر – بيروت

35 معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع–أبو عبيد عبدالله بن عبدالعزيز بن محمد البكري الأندلسي–توفي ٤٨٧هـ/١٠٩٤م

36 معجم مقاييس اللغة المؤلف: أحمد بن فارس الرازي، أبو الحسين المتوفى: ٣٩٥هـ المحقق: عبد السلام هارون: دار الفكر عام النشر: ١٩٧٩م.

الهوامش

---

(١) لسان العرب ١٨٩/١، التوقيف على مهمات التعاريف ٣٣٤/١، تاج العروس ٤٧٨/١، معجم مقاييس اللغة ٩١٥/١ النهاية في غريب الحديث والأثر ١٤٤/٥، فتح الباري ١٣٣/١٠، ١٨١/١٠، عمدة القاري٧/٢٣، زاد المعاد لابن القيم ٣٨/٤

(٢) لسان العرب ١٨٩/١

(٣) أخرجه البخاري في الصحيح ١٣٠/٧ عن أبي هريرة رضي الله عنه

(٤) بطحان بفتح الباء اسم وادي المدينة، به كانت وقعة أهل الردة. (النهاية لابن الأثير ١٣٥/١)

(٥) هو الماء المتغير الطعم واللون. (النهاية لابن الأثير ٢٦/١)

(٦) صحيح البخاري ٢٣/٣

(٧) https://cutt.us/mD0tk

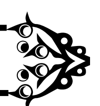
(٨) محاسن التأويل ٤٩٨/٦بتصرف

(٩) الموسوعة الميسرة في الاعجاز العلمي ص ١٢٥

(١٠) التي تُضرب بشيء ثقيل غير محدد حتى تموت. (لسان العرب ٥١٩/٣)

(١١) الموسوعة الميسرة في الاعجاز العلمي ص ١٢٦و ص ١٢٧

(١٢) رابط الدراسة https://cutt.us/hNkh3



(١٣) حديث (غطوا الإناء و أوكئوا السقاء) رواه مسلم في صحيحه ١٥٩٤/٣

(١٤) من كتاب الإعجاز العلمي في الإسلام والسنة النبوية. نسخة الكترونية https://quran-m.com/?p=2955

(١٥) قال كعب بن عجرة رضي الله عنه: (أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم والقمل يتناثر على وجهي، فقال: أيؤذيك هوام رأسك؟ قال: قلت: نعم. قال: فاحلق وصم ثلاثة أيام، أو أطعم ستة مساكين، أو اذبح شاة) صحيح البخاري ح ١٨١٤، صحيح مسلم ح ١٢٠١

(١٦) فتح الباري ١٣٣/١٠

(١٧) أي واد متسع فسيح. مشارق الأنوار ١٦٥/٢

(١٨) زاد المسير في علم التفسير ٢٢٠/١، تفسير القرآن العظيم ٦٦١/١ الدر المنثور ٧٤٢/١

(١٩) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ١/ ٣٢٨

(٢٠) كتاب الذكاء العاطفي ص ٥١

(٢١) كتاب سيكولوجية الجماهير تأليف غوستاف لو بون/ترجمة: هاشم صالح

(٢٢) جامع البيان في تأويل القرآن ٢٧٨/٥

(٢٣) تفسير القرآن العظيم ٨٧/١

(٢٤) صحيح البخاري ح ٣٤٧٣/صحيح مسلم ح ٢٢١٨

(٢٥) صحيح البخاري ١٣١/٧

(٢٦) مسند الإمام أحمد بن حنبل ٢٥٠/٢ بسند صحيح.

(٢٧) https://cutt.us/fRjfF

(٢٨) لسان العرب ٥٢٦/١١

(٢٩) تفسير البغوي ٢٩٤/١

(٣٠) صحيح البخاري ١٣١/٧

(٣١) صحيح مسلم ٢٢٩٥/٤

(٣٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٧٧/١، تفسير السعدي (١ / ٥٣). جامع البيان في تأويل القرآن ١١٦/٢، أيسر التفاسير ٢٥٢/٢

(٣٣) التحرير والتنوير ٧١/٩

(٣٤) صحيح مسلم ١٧٣٧/٤ ح ٢٢١٨

(٣٥) جامع البيان في تأويل القرآن ١١٦/٢-١١٧

(٣٦) تفسير القرآن العظيم ٣٦١/٥، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ٩٤/٤، التحرير والتنوير ١٢٦/١٧

(٣٧) أخرجه أحمد في المسند ٢٢٨/٢، والترمذي في الجامع ٣/ ٢٨٦ وقال: "حديث حسن صحيح، وأورده البخاري في تراجمه في الصحيح. (١١٥/٧)

(٣٨) أخرجه الحاكم في المستدرك ٦٣٥/٢ وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه

(٣٩) زاد المسير في علم التفسير ٢٠٦/٣بتصرف

(٤٠) حديث حسن أخرجه ابن حبان في صحيحه ٥٥١/١٤، والدارمي في المسند ٢١٧/١، وابن ماجه في السنن ٤٧٠/١، رواه البخاري مختصرا.

(٤١) تفسير القرآن الكريم (ابن القيم) ٣٨١/١ الفوائد لابن القيم، ص: ٢٠١

(٤٢) سكة بين صفين من نخل يخترف من أيهما شاء، أي يجتني وقيل المخرفة الطريق أي أنه على طريق تؤديه إلى الجنة. النهاية ٢٤/٢

(٤٣) صحيح مسلم ١٩٨٩/٤ ح (٢٥٦٨)

(٤٤) تفسير ابن أبي حاتم: ح١٤٥٦٢، صحيح ابن حبان: ح٢٨٩٨، فتح الباري: ٤٢١/٦.

(٤٥) صحيح البخاري ٤٨/٢ ح ١١١٧

(٤٦) تفسير القرطبي: ٢١١/١٥



(٤٧) صحيح مسلم ١٧٢٩/٤ ح ٢٢٠٤

(٤٨) ذهبٌ أنزله اللهُ تعالى على نبيه أيوب عليه السلام، على صورة الجراد المعروف لكثرته. (إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري ٣٣٣/١)

(٤٩) صحيح البخاري ٦٤/١ ح ٢٧٩

(٥٠) طرح التثريب في شرح التقريب ٢٣٣/٢، البداية والنهاية ٢٥٨/١

(٥١) البداية والنهاية: ٢٢١/١

(٥٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤٨٦/٨

(٥٣) التحرير والتنوير ٥٤٦/٣٠

(٥٤) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤٨٦/٨، الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي) ١٩٨/٢٠، زاد المسير في علم التفسير ٤٩١/٤، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية ٥٢٣/٥، الدر المنثور ٦٣١/٨، التحرير والتنوير ٥٤٦/٣٠، البداية والنهاية ٢١٧/٢ (بتصرف)

(٥٥) مكان على ثلثي فرسخ من مكة (معجم البلدان ١٦٢/٥) وهو بضمّ أوّله، وفتح ثانيه، بعده ميم أخرى مشددة مكسورة، المغمس، موضع من طرف الحرم ربض فيه فيل أبرهة الحبشي (معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع للأندلسي ١٢٤٨)

(٥٦) صحيح البخاري ١١٦/٧

(٥٧) (إذخر وجليل) نبتتان من الكلأ طيبا الرائحة يكونان بمكة وأوديتها لا يكاد أن يوجدان في غيرها. (شرح الزرقاني ٣٦٢/٤)

(٥٨) جبلان مشرفان، ومجنة: موضع قريب من مكة كانت تقام به سوق في الجاهلية. لسان العرب ٣٣٢/١٢

(٥٩) (تفسير الطبري) ٦٠٦/٥، تفسير ابن كثير ٦٨/٢، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ٩٧١/١، الدر المنثور ٢٧١/٢

(٦٠) زاد المعاد في هدي خير العباد ٣ / ٤٤٥

(٦١) المصدر السابق

(٦٢) مسند أحمد ١٨٤/١٦ حديث صحيح بمجموع طرقه

(٦٣) تفسير ابن كثير٦٤/٧

(٦٤) تفسير الطبري ٢٠٩/٢١

(٦٥) فتح الباري ١٣٣/١٠

(٦٦) عمدة القاري ٢٥١/١٠

(٦٧) البداية والنهاية ٢٦١/١٤

(٦٨) صحيح مسلم ١٧٦٢/٤

(٦٩) صحيح مسلم ٤٥/٧